وجوهٌ بلا هُوية

رواية

تهاني الصبيحة

ⓒ نادي الأحساء الأدبي ، ١٤٣٢هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الصبيحة ، تهاني

وجوه بلا هوية. / تهاني الصبيحة - الأحساء ١٤٣٢ هـ

١٠٨ ص ؛ .. سم

ردمك: ١- ٢- ٩٠٢٤٥- ٦٠٣- ٩٧٨

١- القصص العربية - السعودية - أ.العنوان

ديوي ٠٣٩٥٣١ ، ٨١٣ ٥٩١٩ / ١٤٣٢

رقم الإيداع : ٥٩١٩ / ١٤٣٢

ردمك: ١- ٢- ٩٠٢٤٥- ٦٠٣- ٩٧٨

تصميم الغلاف : أ. خلود بوزيد

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٢هـ / ٢٠١١

نشر هذا الكتاب من قبل نادي الأحساء الأدبي ، وما ورد فيه من معلومات تحت مسؤولية المؤلف ، ولا تعبر عن وجهة نظر النادي بأي حال من الأحوال

نادي الأحساء الأدبي

ص. ب: ٤٨٩ - الأحساء : ٣١٩٨٢

الهاتف: ٠٣- ٥٨٢٤٨٢٩ / ٠٣- ٥٨٦٥٠١٤

الفاكس : ٠٣- ٥٨٦٤٧٦٢

البريد الإلكتروني: adbiahsa@hotmail.com

الموقع الإلكتروني: adabiahsa.com

إهداء

إلى الرجولة الحرة التي لا تزال تسكن رفات أبي الراحل

حسن عبد المحسن الصبيحة

أقدمُ أنثى . . .

تبحث عن (قامة) أبٍ رحيمٍ مثله . . .

تهاني

.....

كل الشخصيات حقيقية ...

وكل ما كتبته واقع ... علينا ألا نخجل منه أو نحاربه

تحدثتُ عنها بكل ما تريد البوح به وهي عاجزة عن التعبير عنه

وسأتحدثُ عنها حتى آخر رمق من عمري

(إنها المرأة)

" البيانو الذي يجهل الكثير منّا فنّ العزف عليه "

(١)

لا أعرف ما الذي يجري حولي فكلما حاولتُ أن أتنفس هواءً نقياً أصطدم برائحة نتنة تجبرني على التوقف ....

وتدفعني للتقيؤ...

أصوات كثيرة لم أستطع تمييزها كانت تستحثني على النطق وتشجعني على الكلام ، لكن ثقلاً في لساني حرمني القدرة على الرد ..

الآن فقط بدأتُ أتذكرُ الماضي وأرحلُ قسراً إليه ...

بدأتُ أتحرر من كيمياء الأدوية وحرارة الإبرة المنغرسة في وريدي ...

بدأتُ أقاومُ ضوء المصباح الذي يشعله الطبيب بين الحين والآخر في حدقتيّ ليطمئن أنني ما زلتُ على قيد الحياة ..

والآن فقط عدتُ بخطواتي إلى بؤرةٍ معتمة من ذاكرتي حيث كان والداي يتشاجران بصوت عالٍ وفي زعيقهما ألفاظ تمضغها الغلظة ...

و أنفة تتمرغ في وحل " شبه الرجولة " ....

واحتضار للمودة والرحمة ....

بينما نحوم أنا وأخوتي حول باب الغرفة كالفراشات التي تستعذب حتفها أمام بريق الضوء ..

كنا نستعين بأعلى طاقة ممكنه تختزنها آذاننا الصغيرة كي نسترق السمع فيما يدور بينهما من نقاش ...

وأدركتُ وحدي " لأنني الكبرى " :

أن أبي تزوج منال الشابة التي تصغره بعشرين عامٍ وأجبر أمي أن ترعانا وحدها وأن تعمل بأي وظيفة تدر عليها مالاً كي تضمن لنا حياة مقبولة ..

ومنذ ذلك اليوم غادر البيت وتنصل من أية صلة تربطه بنا ..

كان يهرب من أصواتنا حين نناديه صدفة في شارع أو زقاق تخبئ فيه قريتنا الصغيرة حجم تعبنا وحدود معاناتنا

(دون أب)

رافضاً كل ذكرياته مع أمي ببساطتها التي لم تكن تعجبه أبدا ...

لم تتخيل أمي أن أقرب صديقاتها وأحبهن إلى قلبها ستوافق دون تردد أن تكون شريكتها في زوجها بعد أن كانت وطنا يحتضن خباياها ويداري متاعبها ...

وطرقت كل الأبواب بحثاً عن شخص يقيل عثرتها ويعينها على محنتها فلم تجد معيناً ..

فجدتي عاجزة عن الحركة وتعيش في منزل خالي منذر أحب أولادها إلى قلبها مستسلمة لكل ما تفرضه الحياة عليها في ذلك البيت الضيق بأهله ...

وخالتي منى تعمل معلمة للمرحلة المتوسطة ولا تعرف عوائدها المالية أو ممتلكاتها الواقعة في قبضة زوجها الذي كان يلاطفها ويداهنها كي يستغل مدخراتها لحساباته الخاصة ..

وهكذا بقيت أمي عدة أشهر بعد طلاقها من أبي تسد حاجاتنا من بيع بعض المقتنيات غالية الثمن التي كانت تحتفظ بها ..

ثم اضطرت بعدها للعمل

" مستخدمة على بند الأجور في إحدى مدارس الحكومة "

وهذه هي الوظيفة الوحيدة التي يضمن عائدها المادي حاجاتنا الأساسية للحياة .

عارضتها خالتي منى وأبدت نفورها منا ثم ألحت على جدتي التدخل لإيقاف هذه المهزلة كما وصفتها ، لكن جدتي المسنة لا حيلة لها سوى الصمت وتحدي كل الدموع التي كانت تحفر وجنتيها وجعاً وترسم محياها بؤساً يفاقم سنيّ عمرها ...

كنا نصارع مغريات الزمن بضراوة ...

كنا مجبرين على النظر إلى كل من حولنا ومقارنة أنفسنا بهم ...

فقد أمضت علياء يوماً كاملاً في النحيب والشكوى بسبب غياب الإنترنت عن بيتنا في وقت تزدحم فيه بيوت صديقاتها بالحاسبات الآلية الثابتة والمحمولة ...

وهدد (محمد) أمي بترك المدرسة وعدم إتمام المرحلة الثانوية إذا لم يقتنِ هاتفاً محمولاً يواكب به أقرانه الذي كانوا يشبعونه سخرية ثم يعيّرونه بحقارة العمل الذي تمتهنه أمه " الفرّاشة " كما ينعتونها !!

فلم تكترث بكل هذا ؟؟؟

وكان همها الوحيد مستقبل أسامة أصغرنا سناً وأكثرنا عناداً رغم أنه لم يتجاوز عامه الرابع ...

فدلالها المفرط له تكفل بتمويه ذاكرته وردم تساؤلاته عن أبي وعن أسباب غيابه ...

كل اللحظات كانت صعبة بالنسبة لي ولم يكن بين أيامي يومٌ ينطق بالسعادة أو يوحي بالاستقرار ، فالمتنفس الوحيد الذي كان يلامس جراحي ويبدد همومي هو لقائي بمرام صديقة الطفولة ورفيقة الدراسة ... ورغم أن اللقاء بيننا كان صعباً إلا أن حبها لي تجاوز كل المسافات وتخطى حدود الزمن ليحيطني دفئاً ويغمرني حناناً ...

فكم مرة غضبتْ مني لأنني رفضتُ ثياباً راقية اشترتها لي لمناسبات دينية واجتماعية قادمة .. وكم مرة استعانت بوالدتي كي تقنعني بقبول ما أهدته لي وتوهمني أننا متساويتان في كل شيء

..

الفكر ،

الذوق ،

التفوق والأخلاق ...

كانت أمي تغضب كثيراً من لقاءاتي المتكررة بها وتكرر علي عبارتها المحفورة في الذاكرة

" الناس ما ترحم "

" البنيّة مالها إلا بيتها "

وكان أكثر ما يثير حفيظتها هو ركوبي مع مرام سيارة يقودها أخوها الشاب الذي لا نعرف شيئاً عن أخلاقه أو سلوكه ...

لكنني كنتُ وحدي أقرؤه بوضوح خلال تلك المرآة المستطيلة المعلّقة أمامي والتي كانت تسرّب إلي معلومات شتى عنه ، فتشي بخبايا روحه وانكسار نظرته حين يجبره زحام السيارات على اختطاف نظرة إلى المرآة الممتلئة بصورتي .....

وأخيراً

يملأ صوتي الهادئ سيارته حين أودعُ مرام بأدب :

مع السلامة ...

أغلقُ الباب وأتجه إلى باب بيتنا الموارب لأواجه شعلة خافتة من الغضب في صوت أمي المحتنق :

تأخرتِ كثيراً ولن أسمح لك بلقائها مرة أخرى ..

احترمي خلو حياتنا من معيل يا ابنتي واستري على نفسك وعليّ من تساؤلات الناس حين يرونك تركبين سيارة يقودها رجل ليس من أهلنا.....

ويبقى الصمت أبلغ رسالة للتعبير عن عدم اكتراثي بهذه القوانين أو إيماني بها....

(٢)

كان يوم الخميس ... عطلة نهاية الأسبوع ...

وجدتُ نفسي مرغمة على النهوض من سريري لتهدئة زعيق أمي المتواصل مع محمد والذي طال النقاش فيه على ما يبدو .....

صمتٌ غريب أعقبه صراخ أجبرنا على سرعة النزول لنفاجأ بأمي ممددة على الأرض دون حراك ...

وفي المستشفى بقي محمد واجماً لا يستطيع الدفاع عن نفسه لأن كل الشواهد تدينه وتشعره بالخجل ..

فغيابه المستمر عن المدرسة وسهره المتواصل مع رفاقه وتحرره من أي مسؤولية يناط بها دفعه للصمت ..

أخذ جارنا أبو ياسين يوبخه دون أن يمنحه أي فرصة للدفاع عن نفسه أو ترجمة إحساسه بالعجز في ظل غياب والدي عنا ..

أطال الملامة عليه وذيّل توجيهاته:

" أما تستحي "

" أمك ثم أمك ثم أمك ثم أبوك "

كنتُ أتمنى أن يصمت أبو ياسين فلا طاقة لنا على اللوم ونحن نعاني القلق من حالة أمي الغامضة حين كانت صامتة على سريرها... خائرة القوى ... ترمقني بنظرات الحسرة ثم تعود لتغمض عينيها وتطلق نفساً عميقاً يترجم حقيقة تعبها ...

وكعادة الممرضات رمقونا بامتعاض ودعونا للخروج ..
فبقيتُ مضطربة في الممر ، أحاول قراءة نظرة الممرضة المبهمة كلما خرجت من غرفة الفحص وكنتُ كلما تابعتها بنظرتي ورجوتها بأسئلتي أن تشرح لي ما جرى تجيبني غير مكترثة :
" ما في معلوم "
" ألهين يجي دكتور "
لحظات وتقدّم الطبيب بخطواته البطيئة يحتسي قهوة إفطاره ويدير نظره في المكان ببرود غير عابئ باحتراقنا ولا مدرك حجم قلقنا ولولا اعتراض أبي ياسين طريقه ومبادرته بالسؤال لما أحسّ بوجودنا أصلاً في المكان ...
تململ قليلاً من تتابع الأسئلة ثم قال :
انخفاض السكر أصابها بحالة إغماء تحتاج بعدها إلى الراحة لذا ستبقى لدينا حتى نتم الفحوصات اللازمة ..
أدار ظهره وتوجه إلى إحدى الممرضات يملي عليها تعليماته ، وخلال ذلك أومأت أمي إلى أم ياسين ببعض الوصايا والتحذيرات وبعدها غادرنا المكان ...
عدنا نحن الأربعة إلى بيتنا متأثرين بالحدث فقد كانت مفاجأة بالنسبة لنا أن تكون أمي مصابة بداء السكر وأن هبوطه سبب لها حالة الإغماء هذه ...

كان محمد أكثرنا ألماً وأشدنا ندماً إذ أنه حبس نفسه بين جدران صمته وأصرّ على مجافاة النوم والطعام حتى يطمئن عليها .

بتُ ليلتها أتململُ على فراشي وأستجدي النعاس دون جدوى ....

كيف سأدير البيت في غيابها ؟؟؟

هل يمكنني السيطرة على تضارب حاجات إخوتي وخلافاتهم المستمرة والتي كانت تصيب أمي بالعجز أحيانا وتدفعها إلى الفرار خارج الدار ؟؟؟

كانت خطوتي الأولى هي حصر ما يحتاجه البيت من مستلزمات طهي ومعيشة ومحاولة شرائها....

ووجدت نفسي هنا بحاجة للاتصال بمرام والتعبير لها عما أصارعه من مسؤوليات ....

اتصلت ... تحدثنا مدة .... وأخيراً :

رجوتها بلهفة أن تساعدني فهدأت روعي ولامست قلقي بعبارة لطيفة :

سأحيطها بوابل دعواتي ...

في صباح يوم السبت قررتُ التغيب عن المدرسة رغم ممانعة أمي واستسلمتُ لنوم عميق أفزعني خلاله رنين الهاتف الذي كان مستمراً لا ينقطع وكانت المتصلة مساعدة مديرة المدرسة تتساءل عن سبب غياب الوالدة ، وقد ختمت كلامها بتهديد وقح أنه سيتم تسجيل غيابها دون عذر لو لم نسارع بإرسال الأعذار الطبية ...

لم أتعجب من فحوى حديثها وما فيه من نكران لكل الجهود التي كانت أمي تبذلها كي تبدو المدرسة نظيفة ومنظمة أمام زائراتهن المرموقات ...
لم يزعجني تهديدها أو تخيفني نبرتها رغم أنني ما أزال تلميذة في المرحلة الثانوية ...
لقد تعودتُ أن أصادف هذه التماثيل البشرية في حياتي وأن أضطر للتعامل معها وتحمّل عنجهيتها التي تغافل الجميع عنها لحظات تعيينها في منصب إداري هي ليست أهلاً له ...
فمديرة المدرسة تمارس أقسى درجات التنكيل النفسي والعنف اللفظي في معاملة المستضعفات تحت سلطتها ..
طالما نهرت أمي أمام المعلمات وعابت عليها عملها وترفعت عن مصافحتها وكأنها مخلوق نكرة لا يليق بمستواها ...
كانت تتجرأ على منحها بقايا الطعام الذي تلتهمه كل صباح على مائدة الإفطار مع إداريات‍ها لتأتي به أمي في نهاية اليوم لنا ... فيتهافت أسامة ليتذوقه وتتعارك علياء مع محمد لتقاسم بعض اللقيمات فيه ...
وكنتُ أزداد حنقاً عليها وأكيلُ لها ما أستسيغهُ من شتائم ، لكن أمي سرعان ما تهدئ روعي وتغيّر مجرى الأحداث لصالحها وتثبت لي بما لا يدعُ مجالاً للشك أن مديرتها أوصت صاحب المطعم بتخصيص هذه الوجبات لنا ....

أقفلتُ الخط ثم شتمتها بأقذع ما دار على لساني من ألفاظ وأنا أسير إلى المطبخ لأغسل أطباق الطعام المتبقية من عشاء البارحة ...

ما هي إلا ساعة حتى دخلت أمي تصطنع الابتسامة فاحتضنتُها بقوة وعاتبتها على عصبيتها المتزايدة ..

كان محمد في استقبالها معي وكان يصافحها بتردد مبدياً أسفه على ما بدر منه لكنها سرعان ما أحاطته بذراعيها وضمته ليخفي ثوبها البالي دموعه وهو يصرخ كالأطفال طالباً منها السماح والعفو واعداً إياها بالطاعة ...

اجتمعنا حول سفرة الطعام نسرد لها ما حدث في اليومين الماضيين ومن الذي سأل عنها بلهفة من أهلها ومن الذي كان غير عابئ بها ؟؟؟

كانت تستمع إلى حديثنا باهتمام وتبتسم أمام تعابيرنا وتشابيهنا المضحكة في حق من لم يظهروا تعاطفهم مع حالنا البائس دون أم ...

قرأتُ في عينيها نظرات عاتبة على خالتي منى وغاضبة من خالي منذر لكونهما لم يبديا أسفاً عليها ولم يتكلّفا بتقديم أي عون لنا فترة غيابها ؟؟؟

أما جدتي فقد منحت ولدها القوامة كي يعيلها ونذرت نفسها للدفاع عن عيوبه وتمرير تجاوزاته تقديساً لذكورته واحتراماً لنظرة مجتمع يقدس الذكر ويحتقر الأنثى ...

فماذا تفعل في زمن أصبحت الغلبة فيه للذئاب ؟

مرت الأيام وأجبرها القدر أن تحتمل صعوبة الكدح كي تحتوينا خوفاً علينا من متاهات تسلب حظنا من السعادة ؟؟؟

ترددتُ يومها وسط ابتساماتها المتكررة وحنانها الفائض في طلب زيارة مرام التي دعتني لحضور حفل ميلادها ..

لكنها علمت بالأمر من علياء وكافأتني على رعاية البيت فترة غيابها بالموافقة شريطة العودة مبكراً مع جارنا أبي ياسين الذي كان يقوم مقام أبي كما تقول ...

كنتُ حريصة لحظات استعدادي للخروج على نظافة جسمي من أي رائحة كريهة قد تنفّر من حولي أو تصيبهن بالاشمئزاز ولم يكن لدي عطر يمكنني أن أنثر رذاذه على ملابسي أو مساحيق متنوعة تغيّر بعض تقاسيم وجهي المكدود من المعاناة ...

فقط إصبع متآكل من ملمّع الشفاة أهدته مرام لي في عيد ميلادي استعملته كي أكسب شفتيّ بريقاً ينهي ذبولهما .

ذهبتُ إلى مكان الحفل أرتدي عباءتي الكتف كي أخفي رداءة البنطال الذي كنتُ ألبسه وأغطي ألوان قميصي الباهتة عن أعين الحاضرات ...

مررتُ من البهو الخارجي بسرعة وكأنني غريبة عن هذا المكان الذي أعلن براءته مني بعد أن امتلأ بنفوس تسكنها الأنفة وتحكمها المظاهر ..

كانت الصالة تضجّ بالأصوات والضحكات ...

بحثتُ عنها مدة فلم أجدها وتأكدتُ بعد حين أنها وسط تبريك الفتيات وقبلاتهن ...

سمعتُ من تتملق لها وتسرد لها عبارات التعظيم لنيل اهتمامها وبلوغ الحظوة لدى أسرتها ولاحظتُ من كانت تنافقها فتظهر لها التودد بينما كانت أمامي تبدي لها الكراهية ...

وأخرى كانت تمجدها وهكذا ....

كنّ يبعن الكلمات بعد أن يلمعن شكلها ويبدين ميولاً خاوية من صدق الإحساس أو نبل الشعور ..

اقتربتُ منها أتفحصها عن كثب فبدت لي أنثى طاغية الجمال ...

ثوب طويلٌ أزرق اللون مطرز بخيوط ذهبية ناعمة وقد أبرز قماشه اللامع خصرها الدقيق وقوامها الممشوق ، ..

كانت مسدلة شعرها الليلي الكثيف على كتفيها ليعطي دوران وجهها القمري جمالاً لم يسبق لي أن تأملتها فيه ...

رأيتها تنتعل حذاءً أبيض أغرى الأرض بخفة الحركة لتبدو بأناقتها وهدوء نظراتها ...وعنفوان ابتسامتها .. ..خفيفة الظل ... عذبة كعذوبة ماء المطر البارد المنهمر على دفء التراب في عروق الأرض الحارة ...

لمحتني من بعيد فبدا الارتباك جلياً على وجهها وأثارت انتباه الحضور حين هرعت مسرعة تشقّ الصفوف إليّ تاركةً خلفها حصاراً فظيعاً من

النظرات التائهة والتساؤلات الحيرى .... بعدها ضمتني إلى صدرها وحطت برأسها على كتفي ..

كانت تحاور حواسي بصمتها وتعزف لي من أنفاسها نغماً رقيقاً يريح توتري ويداري حيائي أمام حشودها المختلفة ..

عانقتُ فيها أنفاس الصداقة التي ترتل تآلف الأرواح في محراب القداسة ....

ولم يدم عناقنا طويلاً إذ أردتُ أن أحرر كل التساؤلات من قبضة الانتظار وأرخي العنان لعاطفتي أن تترجم الكثير من المخبوء الذي يتحدى أبجديتنا حين تفصح به ...

قدمتُ لها هديتها التي اجتهدتُ كثيراً في شرائها رغم رخص ثمنها فأمسكتْها بين يديها وقبلتها وهي تقول :

هديتك رائعة علماً بأنك أغلى هدايا السماء إليّ وأقدس جوائز القدر المكتوبة في لوحي..

بعدها وقفتُ أتحدثُ مع من حولها من فتيات عائلتها فترة من الزمن شعرتُ خلالها بالامتعاض ... لأنني كنتُ عاجزة عن مجاراتهن في أحاديث جوفاء لا صلة لي بها ... ونوادر سخيفة تدل على سطحية تفكيرهن وبساطة اهتماماتهن ...

فلم يكن من أولوياتي أن أعرف قيمة الثوب التي ارتدته المغنية (فلانة) في حفلتها الأخيرة ولا أجد حرصاً في تتبع عمليات التجميل التي أجرتها اللبنانية الشهيرة (فلانة) أو غيرها....

لقد كنت أغرق في بحر تصوراتي وأراقب بدقة وجوه من حولي وأتأمل ملابسهن ومساحيقهن وابتساماتهن وأربطها بالواقع المؤلم الذي أعيشهُ في بيتي ...

حاولتُ أن أبدو متزنة وسعيدة لكي لا أرهق من حولي بهمومي التي لا يد لهم فيها ..

وفي الحديقة استدارت الصديقات حول مائدة الطعام يحيطهن عزف موسيقي كلاسيكي وأضواء خافتة أضفت على المكان رونقاً عجيباً ..

اقتربتُ شيئاً فشيئاً من ضحكاتهن فبادرتني بتول إحدى زميلاتي في الصف :

كيف حالك يا دانة .. أشعر وكأنني لم أرك منذ مدة !!!

فلقاؤنا في المدرسة مقتصر على زمن الفسحة الذي لا يكفي لتناول وجبة الإفطار فضلاً عن الحديث ...

قالت حديثها ثم التهمت قطعة كبيرة من الكعك فصاحت ليلى :

أف لا تتحدثي عن المدرسة لأنها تزيد توتري خصوصاً بعد أن جاءتنا معلمة الرياضيات التي لا تفقه معادلات الدرجة الثانية فضلاً عن منهجنا

الدراسي الضخم .. إنها تتمتم في الشرح بصوت منخفض وحين نعجز عن فهمها تتهددنا وتتوعدنا بسخرية ..

قاطعتُ ليلى وفي داخلي ثمة إحساس ينفرني منها ومن كسلها واعتمادها المستمر في استذكارها على جهود غيرها مع اعتقادها الجازم أن عائلتها العريقة ستمنحها التفوق والوجاهة في المجتمع حتى ولو كانت غبية وفارغة من أي هدف ينير مستقبلها :

معلمة الرياضيات مدركة للمنهج ولكنها تجهل طريقة التدريس المناسبة والتي تمكن التلميذات من استيعاب الموضوع ببساطة ويسر .. هي تحثنا على الاستذكار لمصلحتنا ..

قلتُ هذا وأنا أتناول بضع حبات من العنب ..

فجففت بتول لعابها الذي سال شغفاً بالحلوى ثم قالت بثقة :

أنا تدرسني خالتي وهي معلمة قديرة في التخصص .. كانت تعمل في هجرة بعيدة عن المنطقة لأكثر من ثلاث سنوات ثم نقلوها إلى مدرسة قريبة من حيّنا ..

استمر الحديث بيننا بضع دقائق وكنتُ راغبة في إنهائه منذ أول دقيقة ...

لحظات ثم بدأت الفتيات بالتجمع حول قالب الحلوى فهرولتُ إليهن كي أملأ حيزاً يجعلني قريبة من مرام ...

أُشعلتْ الشموع وأُضيئت القناديل الملونة ليصمت المكان إلا من أنفاسنا المتلاحقة ..

تقدمت زينب إحدى زميلات الدراسة ونشرت لوحاً أبيض كُتب عليه نشيد الميلاد ..

فبدأ الجميع يردده ..

ميلادٌ سعيدٌ وعمرٌ مديد

ووعدٌ وسعدٌ وفجرٌ جديدْ

أطفأن شموع ثمانية عشر ربيعاً ..

وأطفأتُ وحدي شموع إحدى عشرة سنة من الحب... بادلتُها فيها صدق الإحساس وتحملتُ فيها الكثير من الصعوبات والعديد من صدامات الفكر واختلافات الرأي كي أحافظ على دوام تعلقي بها واتصالي بروحها واقترابي من خلجات نفسها ...

آمنتُ بها وتيقنت أن الغيب قد جاءني

(بأخت لم تلدها لي أمي)

صفقتُ بحرارة أدهشتْ الجميع ثم احتضنتها وقبلتُ جبينها قائلة :

مرّ الليل الطويل وتحملتُ ثقله وعانيت وحشته لأنني مدركة أن فجراً من الإشراق سيولد يوم ميلادك ...

ميلادك هو ميلاد الكلمة الجميلة على صفحة الأرض

هو ميلاد عزف مقدس على قيثارة الحب

أنت يا مرام روح عذبة تحتضن حواسي ..
أنت فيض يغمرني بياضاً ..
ورحمةٌ تدثرني صبراً وحباً ...
أحبك كثيراً
وإحساسي بك أكبر من أي كلمة ..
صرخ الجميع بانبهار وانطوت صفحة يوم الميلاد ... ...

(٣)

عادت أمي إلى البيت تبكي بشدة ..

فقد رفضت إحدى المعلمات شرب الشاي في الكوب الذي لمسته بيدها رغم أنها قد انتهت من غسله للتو وقد تكرر موقف اشمئزازها من أمي واعتبارها مخلوق قذر لا يمكن قبوله ، ولم يكن للمديرة ردة فعل مقابل ما حدث رغم علمها به ..

وبينما هي عائدة إلى البيت صادفت أبي دون أن ينتبه لها أمام أروقة أحد المستوصفات وهو يتسلم علاج وليده الجديد من غرفة الصيدلية وحين لمحها لم يبدِ اكتراثاً بوجودها بل مضى إلى سيارته دون أن يلتفت ...

لقد اعترفت أمي (مراراً) لنا أن أبي كان يعاملها بقسوة ، لكنها لم تكن دقيقة في وصفها ولم تفصح لنا بأنه كائن بشري :

منزوع الرحمة وعديم الإنسانية ...

تزوجها مرغماً لإرضاء والدته التي كانت تربطها بوالدتها صداقة حميمة ولم تكن يوماً فتاة أحلامه أو رفيقة دربه ...

كان يضربها لأتفه الأسباب ولا يتورع عن شتمها أمام أي أحد ..

لم تجرؤ يوماً على الاعتراف بحقيقته خوفاً من انهيار أبوّته الشامخة في نفوسنا وأملاً في عودة العلاقة بينهما ...

كانت مدركة تماماً أن بخله يقوده لارتكاب أي جرم يسحق فيه من حوله ويبيع فيه أبوّته... فبخل أبي مركب من عدة فيروسات :

الظلم ،،،،،،

الجبروت ،،،،،،،،،

الأنانية ...

عكفتُ مدة على النظر إليها وحاولت أن أمد يدي كي أهدئ ارتعاش بدنها ففشلت محاولاتي لأنها سرعان ما كفكفت دموعها ولملمت شتات عينيها مبدية رغبتها في طهي الطعام لنا ....

بعد الغداء تظاهرت أمي بحاجتها إلى النوم بينما انزوينا أنا وعلياء في إحدى زوايا الصالة لأباشر استذكار مادة القواعد لها ..

ونشبت في البيت حرب هوجاء بسبب الصرصار الذي حلّق في سماء صالتنا وكان ضخماً ومخيفاً ومثيراً للاشمئزاز ..

ورغم كثرة الحشرات والزواحف في بيتنا المتهالك إلا أن هذا المخلوق غير مرغوب في تواجده نهائياً ...

ولم أنس وقوف محمد يومها متهكماً على خوفنا .... ساخراً من قفزاتنا وهو يمسك نعاله الضخمة كي يهوي بها عليه ويبقيه صريعاً على الأرض ...

هدأ الوضع بعد سيل من الضحكات الممتزجة بالذعر وغادر محمد المكان ...

لم تكف علياء يومها عن التثاؤب رغم صعوبة الموضوع الذي كنتُ أفصّل جزئياته لها ....كانت تستمع إليّ وهي شاردة .... تهز رأسها بين الفينة والأخرى حتى توهمني أنها معي في كل خطوة دون وعي لما أقول ...

حاولتُ تجاهل شرودها كي ألزمها بالتركيز في المعلومات بعيداً عن صديقاتها وبعيداً عن وعود أمي لها بالزواج المبكر للتخلص من مطالبها المتزايدة ..

فمنذ أسبوع تقدمت جارتنا أم عادل تطلبها زوجة لابنها البكر بعد تفحُّص دام طويلاً فعلياء الأصغر سناً والأدق عوداً والأكثر جمالاً ..

لكنها رفضته بحجة أنها غير ناضجة لتحمّل مسؤولية الزواج وإدارة أسرة بأكملها إلاّ أن حرص عادل على رضاها وتقديمه الكثير من التنازلات كتأجيله الزواج إلى الفترة التي تعقب تخرجها من الثانوية العامة جعلها تفكر في الموضوع برويّة وتبدي قبولاً مبدئياً به .....

بدأ نقاشنا يحتدم حين طرحتُ عليها سؤالاً مهماً في مادة النحو ، وترددتْ في الإجابة فنهرتُها غاضبة :

أحدثك وأنت لا تعيرين لحديثي سمعاً ؟؟

ردت بهدوء وهي تعبث بخصلات شعرها المسدل على كتفيها :

متعبة ..

كنتُ حينها أطمعُ في تسديد صفعة قوية لها على خدّها فقلتُ بحدة:

مم تعبك ؟؟

موضوع الخطبة ؟

أذهلتني هالة السواد التي كانت تحيط عينيها وتشققات الذبول الذي غطت شفتيها وهي صامتة تتأمل بقايا مواقف مبعثرة في ذاكرتها ..

وترتب أحداثاً شتى طالما هاجمت مخيلتها ...

لا ... لم أعد أفكر في هذا الموضوع لأن لديّ ما هو أهم ؟؟

قالتها وهي تقلّب صفحات كتاب بين يديها ...بعدها صمتت ثم قالت بأسف :

أعاني من ألم في قلبي ...ألم نفسي سببه علاقتي برحاب ....

أخفضتْ رأسها وتناثرتْ خصلاتها الناعمة على وجنتيها لتداري الانكسار الذي احتل ملامحها وأدركتُ حينها فقط حجم المعاناة التي كانت تعيشها ...

أدركتُ صعوبة الموقف حين يبذل المرء منا مشاعره لروح يحبها ويخلص لها ويضحي من أجلها بل يطوّع كل ما حوله لتحقيق ما تطلبه وحين يأتمنها أسراره ويستودعها خباياه تنسلخ من هذا الحب وتفاجئه دون أي مبرر أن ما بينهما كان مجرد وهم لا وجود له ...

وطيش إحساس ...

لم أمنعها من البكاء رغم ألمي لأجلها ....

كنتُ أحاول تهوين الأمر حتى لا يستنزف المزيد من طاقتها وحماسها الدراسي ...

وحتى لا يكون لرحاب تأثير قوي على شخصيتها بحيث تثنيها عن الاستذكار وتشغلها بترهات وأفكار تافهة لا قيمة لها في ميزان العقل ...

أحطتُ وجهها بيدي وباغتها بابتسامة عذبة تخللتها كلمات مختصرة :

أنت تحبينها كثيراً وأنا أدرك ذلك ..

فردت غاضبة :

أحبها مقابل تجاهلها لي وعدم اكتراثها بمشاعري وتذمرها الفظيع من أحاسيسي التي تطاردها في كل مكان ..

إنني أسعى جاهدة لأكون أكثر كبرياء وترفعا في تعاملي معها صوناً لكرامتي .....

لكنني لا أستطيع ..

صمتتْ ثم بدأت تمسح الدمع الذي سال من عينيها بغزارة ...

تركتُها لحظات لفتح جهاز التكييف ثم عدتُ لأقول :

تستطيعين .. إلا أن عقلك الباطن يرفض هذا .. فأنت تتصورين أن الحب هو الانجراف خلف مشاعر شديدة القوة تربطنا بأشخاص يظهرون تعلقهم وهيامهم بنا ..

وهذا الانجراف يعمي أبصارنا في أحايين كثيرة عن حقيقة بعض المشاعر الوهمية التي لا وجود لها أصلاً في حياتنا ..

لنكتشف فجأة أننا كنا نلهث خلف خيالات كاذبة سرعان ما ستتلاشى..
قاطعتني بعد أن رمت القلم الذي كان عالقاً بين أصابعها :
رحاب ليست فتاة عادية ، إنها تتمتع بشخصية قوية ومواهب عديدة وجاذبية استرعت انتباه الكثير من الصديقات وأنا واحدة منهن ..
رحاب رقيقة وصادقة في وعودها وقد أبدت اهتماماً كبيراً بي ..
طالما هاتفتني في بيتنا وسهرنا ساعات طويلة نتبادل الرؤى ونتنعم بشعور الودّ والتآلف...؟؟
كانت تقدم لي أغلى الهدايا وتنتهز فرصة أية مناسبة جميلة لتشتري لي شيئاً مميزاً أحلم باقتنائه ..
لا أعرف ما الذي قلب الأوضاع وجعلها تنفر مني وتترفع عن محادثتي بينما تعير غيري من الصديقات جلّ اهتمامها ؟؟
هل تعتقدين أن السبب في ذلك هو خطبتي من عادل ؟
قالتها وكأنها اكتشفت ما غاب عن تفكيرها لساعات ..
فكّرتُ قليلاً في بعض كلامها ثم قلت :
لو كان السبب هو خطبتك من عادل فهذا دليل قاطع على أنها لا تحبك ولا تهمها سعادتك واستقرارك فالحب يجبرنا أن نحزن حين نشعر أن من نحب قد يفارقنا نتيجة تغيرات طارئة في حياته ولكننا إذا علمنا أن في ابتعاده سعادة له وأمان لمستقبله ستبتسم الجراح ويهدأ الضيق ..
وهنا لا يحق لك امتهان كرامتك إرضاءً لها ..

الحب يا حبيبتي .....

" مشاعر متبادلة "

" جاذبية كونية بين روحين ممتزجتين إخلاصاً "

" لقاء مغناطيسي لا تنافر فيه "

يحكمه

" رقيّ التفكير "

والتضحية التي يقدمها المتحابان في الله بعيداً عن المصالح الشخصية أو تبادل الهدايا أو تحقيق الذات ..

لكنك أخطأتِ في اختيارها صديقة لك وفي منحها الحبّ بإغداق دون وضعها في اختبارات عديدة تكشف لك غاياتها ..

لديّ تصوّر أنها اعتبرتك " زميلة " فقط بعيداً عن علاقة مقدسة " كالصداقة "

ولو افترضنا أنها أبدت لك الحب وجعلتك تتصورين أنه لا يوجد في الدنيا أحد أغلى منكِ .. ثم عادت وتغيرت وتبدّلت ... فالحكم الصحيح يقول أنها لا تستحق أن تكون صديقة لك ...

لأن الصديق كما يقول " ابن المقفع " :

هو الذي لا يكون " كجلدة الوجه تحمرّ وتصفرّ لأن الصحة والمرض يتعاقبان عليها " ... الصديق هو الذي حين يقبل عليك تشعر أن روحك تخرج لتعانقه ..

وأيّ حبّ متغير يتخلله التعذيب والإذلال والحرمان هو حب فاشل لا بقاء له ...

وأي صداقة فيها طرف " تابع " مثلك وطرف آخر " متبوع " مثل رحاب هي صداقة عقيمة لا يمكن أن تنجب عطاءً وستكون الفائدة منها للطرف المتبوع الذي يستنفذ طاقة الطرف " التابع" ويحقق غاياته الخاصة على حسابه ...

أيّ علاقة تبدأ باندفاع شديد ويكون الحب فيها متفاقماً إلى حدود اللامعقول سرعان ما تنتهي ويخفت بريقها ..

" أحبب حبيبك هوناً ما عسى أن يكون عدوّك يوماً ما

وابغض عدوّك هوناً ما عسى أن يكون حبيبك يوماً ما "

أرجو أن تكتبي هذه الحكمة عدة مرات على أوراقك كي يؤمن بها عقلك ..

صمتت تسترجع أحلامها الراحلة في مواقف الماضي وتحتضن بقايا دموع تحتضر في حدقتيها ثم قالت :

_ ستتزوج قريباً

وما المشكلة ؟؟؟

رفعتُ كتفيّ إلى الأعلى ...

بعدها سحبتُ قالب الشوكولاتة من حقيبتها خلسة ثم تابعتُ باندفاع :

إذا كانت العلاقة قائمة على تواؤم روحي عميق وإخلاص في المشاعر من الجانبين وحبّ إنساني لا يعرف الزيف فستبقى مشرقة إلى الأبد ..
أما المشاعر القائمة على المصالح وتضييع الوقت وتفريغ بعض العقد النفسية بما فيها الحرمان العاطفي من الكلمات الجميلة .. فلا بقاء لها ..
ثم أنه ما علاقة زواج الصديقة من رجل وانتهاء الحب بينها وبين الأنثى ؟؟؟؟
هذا جنون ؟؟؟؟
بل مرض ؟؟؟
شعرتُ أنها تأثرت بحديثي واستعادت وعيها من غيبوبة الأوهام وبعد صمت طويل تخلله شرود غريب قررتْ أن تعاملها بالمثل وأن تترفع عن مطاردتها فترة من الزمن كي تكشف ما تضمره لها من اهتمام وترى مشاعرها واضحة دون خداع...
ارتفع رنين الهاتف وبدأ زعيق والدتي يعلو متذمرة من إهمالنا لرنينه وكانت دائماً تتصور أن يكون المتصل أبي .
وسرعان ما ظهر الانكسار على وجهها الذي كان يتحرى هوية المتصل حين علمتْ أنها صديقتي مرام فعادت أدراجها إلى المطبخ تجرر أذيال الانكسار ..

تحدثنا قليلاً وسرعان ما أنهيتُ المكالمة واعدة إياها بلقاء خاص وعاجل
ثم التفتُ إلى علياء
فبادلتُها نظرة البؤس بنظرات الرضا واليسر ....
وزفرة التعب بأنفاس الأمل ...
وانعقاد الحاجبين ... بابتسامة الرجاء ...
ربتُ على كتفها بهدوء ثم همستُ في أذنها :
تذكري ما قلته لك جيداً ثم ذاكري إعراب الجمل التامة فمستواك يبدو لي ضعيفاً أيتها الكسولة ... نهضت تزم شفتيها في توتر ثم أدارت ظهرها بعد لحظات من العبوس .... كانت نظراتها التائهة تلعن حاجة أرغمتها عدة مرات على الاستجداء من رحاب وتحمل شتائمها الموجعة والقبول بأي مساومة تفرضها عليها لتصبح ذليلة مهانة أمام عوزها ..
إنه عصف يحطم أحلامها ويستبد بقلة حيلتها وعجزها التام عن مجاراة العصر المبهر والثراء الفاحش الذي يطوّق قريناتها ويزيّن ابتسامتهن الدائمة ....
غادرتْ المكان وخلفها صوت مبحوح يطالبها أن تكون هي الأقوى ...
وستكون حقاً هي الأقوى ....

(٤)

اليوم هو يوم الأربعاء وهو يوم راحتي من عناء المدرسة وتبعاتها ...
استلقيتُ على سريري واستسلمتُ لنوم هادئ كان مهماً ليمنح جسدي المنهك طاقة تمكنه من الحركة ...
وفي المساء شعرتُ برغبة ملحة في الحديث فخرجتُ من غرفتي ولمحتُ أمي تجلس وحيدة
تدير خرز مسبحتها مكررة لفظ الاستغفار بلسما تمرره على جراحها ...
كانت تطيل النظر إلى ما حولها من أشياء بحسرة ..
تأملتُها مدة حتى تسربت رائحة احتراق ما كانت تطهوه إلى أنفي فأسرعتُ إلى الفرن لأطفئه ثم عدتُ متلهفةً لمحادثتها...
تخيلتُ أبي وأنا أسير إليها كيف يقضي أعذب لحظات الحب برفقة منال ... يداري تعبها ويحتوي حاجاتها ويتملق لأهلها . كما تنقل لها نساء الحي . بينما تبقى هي قابعة تحت ثقل المسؤولية التي تركها مهدورة بين يديها تعبث بها جراحات الزمن وتساوم عليها متطلبات الحياة ...
جلستُ أمامها مدة وهي صامتة .. وبنظراتها الممتلئة أسفاً نقلتْ لي خبر وفاة جارتنا أم ياسين بسكتة قلبية مفاجئة ...
(أم ياسين)
الأم والإنسانة التي احتضنت أمي في أحلك ليالي الوحشة والأسى ..

طالما مررت أصابعها الدافئة على جراحنا جميعاً وسخّرت طاقة زوجها وجهده لرعايتنا وتلبية ما نحتاجه في أوقات العسرة ..

كانت تتلقى لعنات أمي الساخطة على حظها العاثر بابتسامة الحياة الباعثة على الطمأنينة والرضا ...

أم ياسين أكثر قرباً لنا من خالة منى ومن خالي أحمد وحتى من جدتي ... فأنا لا أحتملُ وجود هؤلاء وأستعذب رؤية أم ياسين ..

لا تزال دعوتها لي أن يرزقني الله زوجاً حانياً تدوي في أذني ...

ولا تزال عباراتها المضحكة التي تداعب بها أسامة حين يخطئ في صياغة الجمل تملأ بيتنا أنساً ...

ولا يزال طعم " اللقيمات " و" الهريس " الذي تجلبه لنا بين الحين والآخر شهياً في فمي ...

رحلت أم ياسين اليوم لتطوي صفحة أخوة جميلة أشرقت حياتنا .....

مكثت أمي ثلاثة أيام تطهو خلالها الطعام لأولادها الذين كانوا ممتنين لتعاطفها معهم ...

ولم يكن لدى أم ياسين أطفال تلتاع أمي برؤيتهم فأصغر أولادها " سلمان " وهو متزوج وأب لطفلين ...

لكن الحسرة كانت في عيني أبي ياسين الذي ما كفّ عن البكاء ولا هدأ روعه من هول الصدمة ...

استمر يتحدث عنها بمرارة ويهذي باسمها في كل الطرقات حتى خاف أبناؤه زوال عقله ...

فاستدعوا له شيخ قريتنا المعروف بتقواه وورعه كي يقرأ عليه آيات من القرآن الكريم ويحدثه عن فضائل الصبر وأجر الرضا بقضاء الله وقدره ...

وبعد زمن :

داعبت الطمأنينة وساوسه....وحوله آية قرآنية تتكرر :

" ألا بذكر الله تطمئن القلوب "

يوم حار ضاق فيه البيت بنا من تهالك أجهزة التبريد ....

دخل محمد منحني الظهر .... حزيناً يواري قسمات وجهه تحت يديه ويتجنب النظر إلى من حوله حتى وصل إلى غرفته ... وظنت أمي يومها أن السبب هو مصاب أبي ياسين إلا إن الفاجعة التي يعيشها محمد أكبر من هذا الفقد في نظره ...

كنتُ أعلم أنه في عمر أحوج ما يكون فيه إلى مساندة أبي الذي غاب عن مرافقته ...

إنه يفتقد الموجّه والراعي والأخ والصديق وكثيراً ما يسمع الإهانة ويتذوق الإذلال على يد معلميه الذين كانوا يوبخونه دون تردد ويصبون جام غضبهم على ضعفه وقلة حيلته ..

ففي بعض مدارسنا يغيب الهدف الأسمى من التعليم وهو تقويم سلوك التلاميذ والأخذ بأيديهم إلى الطريق الأخلاقي السليم الذي يكفل لهم سموّ العيش ويمنحهم فرصة العطاء والتفاعل الإيجابي مع المجتمع ليكونوا بناة له ودعاة إلى الخير فيه ..

معلمون يركزون على الخطأ ويعاقبون عليه دون أن يسعوا إلى معالجته ... يهدرون كل قوتهم في آلية العقاب وخطوات التأديب ...

يهددون ويشتمون ....

وأحياناً ينتقمون ...

وكذلك مدارس البنات حين تكون المديرة أو المعلمة ... معقدة .... متسلطة تسعى إلى فرض سلطتها وتنزيه أحكامها عن " الخطأ " و" الاشتباه " و "سوء الظن " من خلال إلقاء اللائمة على من حولها وتصويب الاتهام على ضعف الطالبة وصمت والدتها لحظة الدفاع عنها ..

ممنوع علينا جلب المشط أو المرآة إلى المدرسة لأنهما يجلبان لنا الفتنة ويغريانا بالزينة والوقوع فيما حرم الله .

ممنوع علينا (في بعض مدارسنا) استعمال العطر حتى لو انبعثت من ثيابنا رائحة كريهة ...

ممنوع علينا ارتداء ربطات شعر فاقعة اللون ...

ممنوع علينا الرفض أو الاعتراض أو إبداء الرأي ...

وتعد مخالفة ما سبق تمرد واعتداء صارخ على كرسي الإدارة ..

ممنوع .....

ممنوع .....

ممنوع .....

هكذا نخرج بالعدوانية ومقت الآخر والكبت مما يدفع بعضنا إلى التحرر من قيود وأخلاقيات الدين والمبادئ السامية ويشجع بعضنا على ممارسة الرذيلة انتقاماً من هذا الحرمان .

وكثير من هذه القوانين عبارة عن اجتهادات شخصية من قبل إداريي المدارس وإدارياتها من باب فرض السلطة وتثبيت جذور الإدارة الحازمة ...

خرجت أمي متوجهة إلى بيت العزاء وتحققتُ من أن عودتها ستكون متأخرة لهذا تسللتُ خلسة برفقة محمد لزيارة مرام التي كانت تلح عليّ المجيء ..

وفي الطريق تحدثنا طويلاً ، وفاجأني أخي المسكين بالكثير من الاحتياجات التي تنقصه ويرى نفسه عاجزاً عن تحقيقها مما يؤدي إلى شعوره بالسخط على كل من حوله وعجزه عن تجاوز حاجاته ...

نذرتُ كل ما معي من مال تحت تصرفه فبدا انشراح صدره يضيء وجهه حتى وصلنا بيت مرام ...

كنتُ قلقة لحظة دخولي من أن مكروهاً أصاب والديها أو أخوها لكن شيئاً من هذا لم يكن ...

وكان الأمر مفاجئاً ومثيراً للفرحة ... فلقد تقدم إلى خطبتها ابن خالتها (ياسر) الشاب الذي كانت تحلم بالزواج منه لكمال أخلاقه وحسن سيرته ..

جلسنا في غرفتها ثم بدأتْ تتحدثُ باندفاع :

أنا متفاجئة من الموضوع وأشعر بالقلق .. وأمي تحاول التحايل على زاهر كي يتمم خطبته من بلقيس أخت ياسر حتى نقيم عرساً يجمعنا .

نظرتُ إليها وفي عينيّ مزيج من فرح وحزن ...

فرحي بأنها ظفرت بمن تحب وحزني أنها قد تفارقني إلى حياتها الجديدة وتلهيها أسرتها وأولادها عن الاتصال بي أو احتواء آلامي ...

فقد تعودتُ أن أتصل بها في أي وقت أشتاقها فيه ..

تعودت أن أفصح لها عما أخبئه عن سمع أمي وأواريه في لحد روحي كي لا يطّلع عليه أحد إلا خالقي ...

وتمنيتُ حينها أن أبوح لها بهذا الشعور لكنني ترددتُ في ذلك ...

فاكتفيتُ بأن وضعتُ يدي بين يدها في حنان وقاطعتها بصوت خافت يخالجه الحزن :

بارك الله لك في كل خطوة ...

ما بك ؟

سألتني بتعجب !!

أطلقتُ زفرة عميقة كانت نهاية احتراق في جوفي وقبل أن أبدأ بالرد فُتح الباب فجأة مع صوت يتساءل :

قلم أحمر .. أناديك يا مرام منذ مدة ولم تردي عليّ ... أريد قلماً أحمر ...

بسرعة تحركي بحثتُ عن قلم ولم أجـ .....

ارتبكتُ كثيراً وأنا أصلحُ عباءتي وأسدلُ الغطاء على وجهي رغم أنه أدار ظهره بسرعة إلى الخلف .. ولأنه شعر بالضيق والأسف على انتهاكه للغرفة دون أذن مسبق قال بنبرة النادم :

آسف .. آسف ...

لا علم لديّ بوجود أحد ..

أغلق الباب بسرعة عجيبة وبعدها نهضتْ مرام مرتبكة كي تقفله وهي تقول :

أعتذر عن هذا .. والله لم ليكن لديّ علم بالأمر .. ونتيجة لانشغالي الشديد بالحدث نسيت قفل الباب ..

أجبتُها وحشرجة الخوف تعترض جوفي :

لا بأس ... المهم أن حجابي كان مُحْكماً ويبدو أن المكشوف من ستري هو وجهي فقط .. الأمر خارج عن إرادتنا جميعاً .. فقط شعرتُ بالخجل ..

زاهر أيضاً شعر بالارتباك وأتصور أنه غاضب منّي لأنني لم أحكم قفل غرفتي .

(قالتها ووجهها محمر) ..

نهضتُ وأنا أرتدي غطاء وجهي على عجالة :

حسناً مرام .. لا أريد إطالة الجلوس معكِ .. فقد تركتُ أمي وحيدة في البيت وأظنها تحتاجني سأخرج الآن .

أمسكتْ يدي بحرارة :

سامحيني فالموقف مزعج جداً .. ولو حدث هذا لغيرك لكان الأمر أهون عندي ..

لا تقلقي عليّ .. لن يزعجني هذا كثيراً.. فقط أحيطيني بدعائك..

(أجبتها وأنا أبتلع ريقي بصعوبة) ..

رأيتُها تدس في حقيبتي شيئاً أبيضاً لم يلفت انتباهي أو يستجوب تفكيري كما كان يحدث سابقاً حين كانت تفاجئني بهدية ما ...

تصافحنا وخرجتُ أشعرُ بالضيق مما حدث ... فلم أتعود أن أكون في مكان لا أشعر فيه بالأمان ولم أسمح منذ لحظة ارتدائي للحجاب لأي أجنبي أن يطلع على وجهي أو يكشف ولو اليسير من ستري ...

أذكر أنني حين كنتُ في العاشرة من عمري أصبتُ ببروز كيس دهني على كتفي الأيمن وتقرّر أن يجري عليّ الكشف طبيب مشهود له بالكفاءة ...

رفضتُ يومها هذا بشدة ، وطلبتُ من أبي أن يحضر لي طبيبة إذا أمكن الوضع ، ولما تعسر الأمر عليه وافقتُ على مضض وبكيتُ كثيراً لأن رجلاً لمس جسدي دون حق يسوّغ له ذلك سوى حق المرض ...

صحيح أن الشاب لم يكن متعمداً ويبدو أنه خجل كثيراً من فعلته هذه ، لكن ما كان ينبغي على مرام أن تستقبلني في غرفتها إلا حين تأكدت تماماً من قفل بابها..

عُدتُ إلى البيت وتجنبتُ مجالسة أهلي ولعل السبب هو شعوري بالتقصير لأنني لم ألتفت إلى حماية نفسي في بيت صديقتي ،،

أوهمتُ والدتي أنني أعاني من التخمة نتيجة الطعام الكثير الذي تناولتُهُ كي تتوقف عن معاتبتي وتلتفت إلى إطعام أسامة ورعاية علياء التي كانت تعاني من ارتفاع شديد في درجة حرارتها ..

أقفلتُ الباب واستلقيتُ على سريري أفكرُ في تلك الصدفة الغريبة التي جمعتني به .

لا أعرف كيف تجرأتْ روحي في الماضي أن تحبه ولماذا أتحتُ الفرصة لقلبي أن يؤمن به أو يتسع كي يحتويه ...

لم أكن أعرف عنه شيئاً سوى أنه هادئ ... وسيم ... ومهذب في حديثه ..

كان حباً بريئاً بقي موشوماً على صفحة سنيني يغريني بالولوج إليه متنفساً من ضيق همومي حين أخلد إلى النوم أو أستجدي الراحة ..

أعرف أنني بهذا التفكير بلهاء وغبية .. فلا حق لي أن أنظر إليه أو أتأمل ملامحه أو أحلم به زوجاً خصوصاً مع الفارق الكبير بين أسرتهم المرموقة في المجتمع وأسرتنا المتواضعة ...

ولكن نظرته الحائرة لا تزال تطاردني ... تحاصر كل أفكاري رغم محاولاتي اليائسة للتخلص منه ....

ثمة خوف يراودني رغم ثقتي التامة بمرام واتزانها من انتشار ما حدث بين أوساط صديقاتنا داخل القرية أو خارجها ..

فالمرأة في قريتنا يهون عليها الموت ولا تهون عليها لحظة يكتشف فيها رجل ملامحها ...

انقطع صمتي بطرقات على الباب

تفضل ..

صدر صوت خافت سمعته بصعوبة

أنا علياء ..

دخلتْ وكانت منحنية الظهر ... خائرة القوى ... مصفرة الوجه ... منهكة ...

رمت بنفسها على السرير ثم مدت يديها كأنها تتهيأ لحكم النوم وتمتمت بهدوء :

أرجوك أقفلي الضوء ..

نهضتُ لأتيح لها فرصة الاسترخاء وبينما كنت أجمع حاجياتي كي أتم واجباتي خارج الغرفة لمحتُها تبكي على الوسادة دون أن يفضحها صوت أو تنبئ عنها شهقة ...

لم أستطع الخروج ومكثتُ أتأملها في صمت حتى هدأت وكانت اتهاماتي مسلّطة على رحاب وعنجهيتها المعروفة فلعلها باغتتها بلفظ مؤلم أو موقف مفاجئ أصابها بالألم كعادتها حين تواجهها ولا تستطيع الرد على بشاعتها لأنها

(تحبها)

رفعتْ رأسها وبادرت تقول قبل أن أطرح عليها أي تساؤل :

صدقيني حاولتُ مراراً أن أكره رحاب ، أن أتخلص من جنوني بها وانجرافي خلف مشاعر حمقاء تسيطر على تفكيري وتستولي على اهتمامي ..

حاولتُ إقناع نفسي أن ما أفعله غباء ..

ضعف شخصية ..

وهم ..

لكن لا فائدة ..

أعرف لماذا أنت فشلتِ

(أجبتُها دون أن أنظر إليها حتى لا أجرها إلى البكاء)

فأجابت بإصرار بعد أن انتصبت جالسة :

لأنني ضعيفة ومتهالكة ومتعبة .. لأنني أعاني في بيتنا .. أمي مشغولة عنا بوالدي وزواجه وأنت مشغولة بالثانوية العامة والتخرُّج .. ومحمد لا يؤمن بصداقات الأنثى ؟؟ ماذا أفعل ؟؟ ..

لم أجد أمامي إلا رحاب التي تفهمني حين أشكو وتضمني حين أبكي .. ثم توجّه اللوم إلى كل من يؤذيني . . .

واجهتها بنظرتي الحادة قائلة :

أنتِ التي أقنعت نفسك بهذا ..

اسمعيني جيداً :

الحب هو دائرة كهربائية تعمل في مصنع العقل الذي يغذي أجسامنا البشرية حكمة وذكاء وهذه الدائرة تُضاء بمجرد أن يكون السلك المتصل بها موجباً قادراً على إشاعة الطاقة في كل موصلاتها والتي هي عروقنا وأوردتنا وشراييننا ..

وما أن تعمل الدائرة الكهربية حتى يشع الضوء في كل عروق الجسم وجزيئات الدم ليتطهر قلب الحبيب من الرذائل ويصبح وعاء يتلقى فيوضات المحبوب ...

إنه أبجدية قلبت مسار حياتنا ولونت عتمة واقعنا وخطّت أملاً لابتسامتنا ووعداً لنجاحنا ...

إنه شاطئ هادئ يمتد برمله الدافئ أمام أمواج مخاوفنا ...

و" خطأ " أن نقول أن مصدر العاطفة هو القلب .. العاطفة تتحرك مع تدفق الدم في دهاليز الجسد ... وتستوطن العروق التي تبوح بما نخبئه من أسرار لمن نحبهم ونثق أنهم أهل لتلقي آلامنا ورعاية آمالنا بدليل أننا حين نشاهد من نحبهم أو نسمع أصواتهم نشعر برجفة تعتري أجسادنا وتسارع يدبّ إلى نبض قلوبنا ويعبث به كي يخرجه من الرتابة إلى فوضى الإحساس وتضارب الشعور ثم سرعان ما نهدأ حين نقترب ممن نحب أو نمسّ أجسادهم ..

ومع كل هذا نحن نؤمن أن الله تعالى كرّم النفس البشرية واعتبرها نفساً محترمة لها قيمتها وكمالها فنهى عن إذلالها أو تعريضها للإهانة حتى ولو كان هذا لغاية هامة جداً مثل الجوع والعطش والفقر ..

وليس من العدل أن أسيء إلى نفسي المعظمة عند بارئها والتي هي ليست ملكاً لي حين أطأطئ هامتي في حضرة من تغرر بعاطفتي ثم تهينني وتشتمني باسم الحب أو الصداقة أو الأخوة ..

إلى آخره من المسميات الواهمة ...

فهذه جريمة شنعاء سيعاقبني الله عليها بسبب إضاعتي لوقتي دون فائدة وإلحاق نفسي بأذى كان يجب عليّ الابتعاد عن مسبباته ..

(أبي تزوج من امرأة أخرى) ...

(أمي مشغولة بالبيت ومشاكلنا الأسرية) ....

(أنا مشغولة بدراستي)

هذه الأسباب ليست هي الشماعة التي تعلقين عليها خطأك وتعلّقك غير صحيح برحاب ....

كل الناس تعيش حالة انشغال ...

رحاب مثلاً تعيش صراعاً بين انشغال والدتها الدائم بنشاطات اجتماعية تافهة هي مصدر رئيس لاستمرار الشجار بينها وبين والدها ...

بينما تعاني أخواتها من سلطة والدهن ودكتاتوريته المنفّرة في منعهن من الخروج وحرمانهن من رؤية أحد بحجة المحافظة عليهن..

ولهذا أصبن بردة فعل قاسية جعلتهن يتعمدن مراقبة الأخريات ويتتبعن أخطاءهن ويسخرن ممن لا تروق لهن من الناس.....

حاولتْ مقاطعتي للدفاع عن نفسها لكنني علوتُ بصوتي مسترسلة :

جمعتني الصدف للحديث مع أختها أمل فكانت تطالعني باستصغار وتهزأ بي ولديّ يقين أن رحاب وأخواتها أحيانا يتخذونك أضحوكة ..

كفكفت دموعها ثم اقتربت مني تحاول إقناعي بخطأ ما قلت :

لكنها تحبني وقد قالت هذا مرارا ..

أقسمتْ أنها لم تحب ولن تحب أحداً في هذا الكون مثلي وأن زواجها لن يغيّر تعلّقها بي ولن يبعدها عنّي ..

قاطعتُها :

هراء .....

كذب ..

لاذتْ بالصمت هروباً من المواجهة حين أسدلت أهداب عينيها إلى الأسفل فتابعتُ كي أنتشلها من هذا الشتات :

رحاب تريد أن تبقيك معها حتى بعد زواجها كي تتسلى بمشاعرك متى شاءت وتصرفك عنها متى شاءت .

تحركك بأصابعها كلعبة الشطرنج التي تمثلين فيها دور " دمية خشب " مرة يميناً ومرة يساراً ومرة إلى الأعلى ومرة إلى الأسفل وفي النهاية تحقق غاياتها وتخرج من اللعبة ظافرة على حساب وقتك ومشاعرك ...

اعذريني لو كان كلامي مؤذياً ولكنها الحقيقة التي دائما تديرين ظهرك لها وهي مشرقة كالشمس أمامك ...

سؤال مهم فكّري في إجابته :

هل يعقل أن تتزوج الفتاة في أيامنا هذه ويكون لديها وقت لتهاتف صديقاتها أو تعيرهن مساحة رعاية واهتمام ؟؟؟

هل سيسمح لها عريسها في عامهما الأول بأي انشغال قد يسلبها منه ؟؟

وحتى لو سلمنا جدلاً بوجود الوقت .. هل سيبقى تفكيرها في علاقاتها الاجتماعية مثل السابق؟؟

استغرق حديثي معها ساعتين من وقتي انتهتا ببكاء مرير ....

جعلتني أشعر بالانكسار وأتمنى لو ألوي عنق رحاب هذه وأودي بحياتها التي أدخلت المرارة إلى جوفي رغم قسوة الظروف التي أعيشها ...

حاولتُ إقناعها بالصبر والتعاطي مع الأحداث بروية ومحاولة إبراز نشاطاتها الأدبية في المجتمع كوسيلة لتعزيز الذات وطرد الأوهام القاتلة التي لا طائل من لحاقها بها ...

كنتُ أعلم أن استجابتها ستكون بطيئة وقد تتعثر أمام كثير من مواقف الماضي وذكريات الحب التي تجرها إليها ..

المأساة أنها أحبت من لا تستحق منها ذرة اهتمام ، أحبتْ لئيمة لا يمكن أن تؤثر فيها الرحمة أو تأسرها الكلمة الجميلة التي تمثل غرساً خصباً يثمر في النفوس ...

آه من تلك اللوعة التي أراها تسكنها وذلك الحنين الذي ترتله عينيها ويبوح به خاطرها كلما ذكرت لي مواقف رحاب أو جلبت لي بعض هداياها كي تريني إياها .

وكان آخر سؤال فاجأتني به قبل أن تغادر غرفتي :

ماذا يجب عليّ أن أفعل ؟ ..

أجبتها وأنا أبتسم في ذهول :

أبعد كل ما قلناه يا محتالة تسألينني هذا السؤال ؟؟؟

ابتسمت في حياء لكنني لم أتردد في الاسترسال قائلة :

أنت مميزة وجذابة لدى رفيقاتك و نحن نحبك ونفتقد وجودك بيننا وإحساسكِ بنا .. فمنذ فترة كانت أمي تتحدث عنك وهي عاتبة على غيابك بل هروبك من أحداث البيت إلى حضن رحاب ..

ابكِ يا حبيبتي وخففي بعض حزنك وضيقك ..
لا تبكِ لأن رحاب تركتك بعد سنوات من الحب ..
بل أبكِ على أيامك الجميلة التي ضاعت من أجل مشاعر تافهة لا تمت للصداقة بأية صلة .. أبكِ لأنك كتبتِ كلاماً جميلاً وراقياً لمن ازدراها الحب ..
ظننتِ أنها ستنسيكِ همومكِ وتأخذكِ إلى عالم وردي حالم لا همّ فيه ولا وجع والمأساة أن نهاية مؤلمة مسكونة بالدمع كانت تنتظركِ على يديها ..
موقفك يذكرني بقصة الحمل الوديع الذي أحبّ قاتله واقترب منه ليمرّغ رأسه بين يديه شاعراً بالأمان فغفا على مقصلة الذبح ثم سرعان ما انتفض فزعاً من حرارة السكين تحزّ نحره ..
.....
نظرتْ إليّ ملياً وكانت تسرح بخيالها إلى نقطـــة مهمة في ذاكرتها فقالت :
طالما عانقتني رحاب واحتضنتني بجنون مشاعرها ..
طالما قبّلتني بين عينيّ ..
ماذا يعني هذا ؟؟
أجبتها وكأنني أختزل الإجابة من قراءات متعددة :
الاحتضان تلامس جسدي تلتقي خلاله الأرواح وتمتزج ببعضها ..

والقبلة هي تعبير رفيع عن الرغبة الإنسانية في النفاذ إلى الروح ..
نحن نعانق من نحب ليس من أجل إشباع رغبة دنيئة يزيّنها لنا الشيطان ..
أو إرضاء شهوة جامحة تنسل بين غرائزنا الحيوانية ....
أو تفريغ شحنات انفعالية مخزونة في باطننا ولا نجد سبيلاً للتعبير عنها ..
إننا نقبّل أحباءنا لأننا نشعر بقيمهم الرفيعة في نفوسنا ولا يمكن أن يكون الاحتضان أو التقبيل هدفاً في حد ذاته ولكنه وسيلة لغاية إنسانية سامية ..
هل قرأتِ شعر عنترة حينما قال :

ولقد ذكرتكِ والرماحُ نواهلٌ مني وبيضُ الهندِ تقطُرُ من دمي
فوددْتُ تقبيلَ السيوفِ لأنها لمعتْ كبـــارِقِ ثغـــــركِ المتبسّمِ

نعم قرأته وأنا من أشد المعجبات بشعره ..
أجابت وهي مبتسمة فاسترسلتُ أقول :
جميع النقاد عزيزتي دهشوا من عنترة هذا العبد الذي تحرر من عبودية ذاته إرضاء لعفته ليفكر في هذه اللحظة بتقبيل السيوف حين يربط لمعانها وسط الظلام بابتسامة ثغر (عبلة) محبوبته ، لكنهم توصلوا في النهاية إلى حقيقة مفادها أن " قبلة " عنترة مدخل إلى روح عبلة

ولهذا صاح الشاعر الفرنسي " لامرتين " بعد دراسة هذه الحقيقة المجهولة بقوله

" هذا هو الحب الحقيقي وهذه هي البطولة الحقيقية "

هل كنت تشعرين أن رحاب كانت تقبّل جبينك كي تلامس روحها جمال روحك؟؟

هل كان احتضانها تعبيراً جاداً عن الوجد الذي يغمرها حين تراك ؟؟ ..

صمتت ولم ترد فأدركتُ أن الجواب لديها صعب وأن متابعتنا للحديث ستجرنا إلى ويلات كثيرة لذا فضلتُ أن أقنعها أن المهم هو الغد وأننا لا دخل لنا بالماضي ومواجعه ...

المهم أن يعود الأمان إلى قلبها ليصبح وعاءً مضيئاً يستقبل أيّ فيض أو لطف ممن تحبهم ومن هم أهل لاحتواء مشاعرها....

وهكذا ستولد علياء جديدة مطرزة ببياض الشمس لترحل إلى ما وراء الأفق تستنطق الطبيعة وتنهل من جمالها الرباني ..

أمسكتُ يدها برفق ثم مسحتُ بقايا الدمع الذي كان يطلّ من مقلتيها وقلت :

وعد

وعد..... دانة

(قالتها وهي تبتسم باقتناع وثقة) ..

تعانقنا ... وأسدلتُ ستار يوم مهم في حياتي

(٥)

في هذه الليلة افتقدتُ آلتي الحاسبة وبحثتُ عنها بإلحاح بسبب مروري أمام مسائل رياضية معقدة أثناء الاستذكار وبينما كنتُ أتفحّصُ حقيبتي لمحتُ الشيْء الأبيض الذي دسته مرام في آخر لقاء بيننا قبل أيام وقلبته بين يدي متسائلة عن هويته ..

فاجأني أنه شريحة اتصال إنترنتية كانت قد وعدتني بها رغبة في استمرار الاتصال بيننا عن طريق الدردشة الالكترونية ...

لا أعرف ما الذي جرّني إلى استعارة جهاز محمد المحمول لتشغيلها دون علمه رغم تحذيراته المتكررة لنا بعدم مس جهازه خوفا عليه من التلف بعد أن اجتهد في شرائه من عمل شاق التحق به أثناء العطلة الصيفية ...

تمت عملية اتصالي بنجاح للمرة الأولى وكنت أحتفظ ببريدها الالكتروني في دفتر مذكراتي وبمجرد أن أضفته ظهر لي وميض يبدو أنه طلب محادثة ...

فجمعتني الصدفة بها في ذلك الوقت المتأخر من الليل من غير ميعاد ..

وهكذا أمضينا وقتاً ممتعاً في حديث جميل تذكرنا فيه بعض المواقف المدرسية الطريفة وتجاذبنا فيه كلاما ناعماً خفف حدة غضبي عليها ولومي المتكرر لها مما حدث لي في بيتهم ...

أقفلتُ الخط بعد شكري المتكرر لها على هديتها التي أتاحت لي فرصة تصفّح بعض المواقع وقراءة الكثير من الموضوعات ..

ففي هذه الأيام تمر أوقات عصيبة على تلميذات الثانوية العامة حيث الصراع الحاد بين الوقت والكم الهائل من المعلومات المطلوب استيعابها في كل مادة علمية ..

فتبذل التلميذة منّا جهداً يلتهم ساعات يومها المعدودة ويغري جسدها المنهك بالخلود إلى النوم والاستسلام الإجباري للراحة لكنها تظل تقاوم هذا الإحساس الدافئ في لحظات يباغتها فيها البرد وسط احمرار يلتهم عينيها ويودي بإشراقها ..

كنتُ واحدة من أولئك اللاتي كافحن وخطون خطوات رتيبة تطاردها حدة الأعين الحاسدة وتطوقها شائعات الأقوال المتضاربة..

مرة يقولون لي الأسئلة صعبة ....

ومرة اختبار القدرات مخيف ....

ومرة قبول الجامعة مقتصر على تخصصات معينة ولعدد محدود من الخريجات ...

وأخيراً الواسطة فوق كل شيء ...

فمضيتُ أعتدُّ بطاقتي دون أن أنظرَ إلى الخلف ... مضيتُ لألحق بغد سينقلني من عثرات كثيرة كانت تحاصرني كي تأسر طموحي ...

وكانت دعوات أمي كل صباح تضيءُ خطواتي التي طالما اشتاقت صوتها العذب .....

فأدخلُ قاعة الاختبار بثقة وقبل أن أشرع في قراءة الأسئلة أستفتح باسم الله وأتلو بعض الآيات القرآنية التي تملأ توتري أماناً ...

انتهت الاختبارات وبدأتُ أعيشُ حالة الهلع والتوتر انتظاراً لمعدل سيشترك مع اختبار " القدرات " في تحديد مصيري العلمي والعملي ...

في يوم مشمس وبعد أن أتممتُ فروضي البيتية مبكراً استلقيتُ على فراشي كي أشغل وقتي بقراءة كتب استعرتُها من مكتبة مرام ...

اتفقنا أن نبدأ بقراءة قصة " ماجدولين " المترجمة عن الكاتب مصطفى لطفي المنفلوطي ..

فتحتُ الكتاب وقبل أن أبادر بقراءته لمحتُ وسطه ورقة بيضاء تم عطفها بدقة متناهية فتبادر إلى ذهني أنها تخص مرام وأنها نسيت الاحتفاظ بها خارج الكتاب .

رفعتها بحذر والتقط بصري اسمي مكتوباً في أحد سطورها فأجبرني الفضول على فتحها لأن هاجساً حدثني أنها قد تكون رسالة حب منها أرادت ترجمة إحساسها لي فيها بعد خبر خطبتها واستعدادها للزواج ...

كانت مفاجأة أن يكون المرسل هو زاهر واعترتني رجفة جعلتني أقلب الورقة وأتردد عن فتحها دقائق من الوقت....

ترى ماذا يريد مني ؟؟؟

وكيف قادته الجرأة أن يفعل هذا ؟؟؟

وهل من حق ابن النسب أن يتخذ هذا الأسلوب القذر لمحادثة الفتيات العفيفات أمثالي ؟؟؟

لعله أراد الاعتذار عما بدر قبل أيام ...

هل يجوز لي الاطلاع عليها أم يجب علي التخلص منها قبل أن يكتشف أحد أمرها فيحكمون عليّ بالمؤبد داخل زنزانة بيتنا القاتلة ؟؟؟؟

أخيراً قررتُ وأد تساؤلاتي بقراءة المكتوب ثُمَّ التخلص من الورقة دون علم أحد...

فتحتُها بحذر ثم فتحتُ جهاز التكييف رغم اعتدال الجو كي أخفف حدة اضطرابي وتصبُّب العرق من جبيني ...

فقرأتُ الآتي:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ..

الفتاة الفاضلة بكلّ ما في الكلمة من معنى

دانة...

قبل أن أكتب إليك قاومتُ رعشة سكنت يديّ وواجهتُ سراً كنتُ أخبئه في قلبي مع عجزي التام عن الإفصاح به لأحد..

أكتب لك كلماتي المتواضعة وأشير إليك منذ البداية أنني لست فارساً على متن الأبجدية ولا فذا في الاحتيال على اللغة ولا متمكناً من تطريز

عبارات جميلة يمكنها أن تنفذ إلى قلبك المرهف أو تسيطر على مشاعرك الندية ..

أولاً أعترف لك دون أيّ تردد أنني

(أحبك)..

وأن هذا الحب باغتني ليفضح حقيقة إحساسي تجاهك ... وبعدها استوطن نبضي ينطق بي ويطوّق أحلامي ..

اعذريني أيتها العفيفة الشريفة لو كان في كلامي ما يخدش حياءك أو يخجل عفتك فلم يكن هدفي تنميق الكلام وإنما هي لغة المشاعر الصادقة التي لن أتركها تحتضر بين أنياب تقاليد لا ترحم ورؤى باطلة يفرضها بريق المظاهر ..

يجب أن تعرفي أن مشاعري تجاهك بيضاء بياض الفجر حين يقاوم العتمة ويبسط أجنحة الضوء على صفحة السماء ..

نقية نقاء المطر الذي يزيح هموم الأرض بعد عناء الجدب ..

طاهرة طهارة الوليد المغتسل بالرحمة..

رجائي منك ألا تستعجلي في قبول من يتقدمون إلى خطبتك إذا شعرتِ أنهم ليسوا أهلا لإنسانيتك..

إن كنت راضيةً بي فاصبري وسأسعى بكل ما أوتيت من قوة لأكون " زوجاً لك "..

أشاطرك متاعب الحياة ..

" أعدك بذلك "

ملاحظة :

اعذري جرأتي على أمرين

أولهما دخولي في ذلك اليوم إلى غرفة مرام دون أذن ..

وثانيهما (مراسلتك) ..

أرجوك التمسي لي المبرر .. وتأكدي أنك قبل كل شيء شرفي وعرضي اللذان لا أقبل عليهما سوءاً ولا أرضى أن ينالهما أذى ..

دمت مشرقة بعطائك ...

زاهر ....

لا أعرفُ لم ابتسمتُ ولمَ هدأ روعي وشعرتُ بالأمان للوهلة الأولى في حياتي !!

أعترفُ أن ذلك اليوم مرّ عليّ مختلفاً عن بقية الأيام ...

أعترف بكل جرأة أن حبه حاور صمتي ولامس إحساسي واستنطق جوارحي المأسورة لسوط الحرمان ...

لم أرتبك ولم أخجل ولم أتردد في قراءة رسالته عدة مرات ...

لا أعرف لماذا آمنت به بهذه السرعة وتخيلتُ نفسي دون تردد عروسه التي ستحقق له رؤى المستقبل ...

خالفتُ كل وعودي وتحديتُ اتهاماتي واحتفظتُ بالرسالة في درجي وقررتُ يومها مواجهة العالم بأسرة كي أكون زوجةً له ...

لم أكن حاضرة في بيتنا ولم أشعر بمن حولي رغم أن الصالة كانت مكتظة برائحة الشواء الذي كان يتفنن محمد في إعداده إلى جانب صراخ أمي المتواصل لعلياء طالبة كاساً من الماء ..

كنتُ أعيش حلم القصر والأميرة النائمة والفرس الأبلق ...

حلم ساندريلا ودقات الساعة بعد منتصف الليل ...

حلم العمر ...

أعرف جيداً أن ما أفعله الآن هو تمرّد على عاداتنا وتقاليدنا وحيائنا الذي يجبرنا على الصمت حتى لو أحببنا....

تخيّلتُ يومها كل شيء :

تخيلتُ فستاني الأبيض وطريقة دخولي إلى قاعة العرس وباقة الورد المحاطة بالساتان وكيفية إمساكي بها ...

تخيلت كبريائي وأنا عروس وتخيلته بطوله الفارع وشاربه الكث واتساع عينيه العسليتين يقف أمامي ثم يهفو على جبيني بقبلة هادئة تترجم تضحياته من أجلي ....

وتخيّلتُ أمي تلبسني عقد الريحان ثم تنثر عليّ النقود وتطلق زغردة أجمل إحساس يخالجها بعد عناء مع الزمن ...

تخيّلتُ كم سأحبه ؟؟؟؟

وكم سأفصحُ له عن حقيقة هذا الحبّ الذي منحني الرغبة في الحياة وزاد تمسكي بالمستقبل ؟؟

مضى عليّ زمن وأنا صامتة وكان الكل مشغول بما يخصه لذا لم ألتفت وقتها إلى نداء علياء التي جاءت تخبرني أن أبي ينتظرني غاضباً عند الباب ...

وبعد صراخه المتكرر خرجتُ مهرولةً إليه ...

حين قابلتُه نظرتُ إليه محاولةً مواراة عتابي الذي كان يستجديه الحب بوضوح ، ويترجم له الألم بخفاء .... سعيتُ جاهدة إلى إخفاء لمحة الحزن التي طالما تمرد فيها الدمع بعد أن عبث بألمي وألهب جراحي...

كنتُ أراهُ بمجرد أن أغمض عينيّ كي أخلد إلى النوم فهو رغم غيابه حاضرٌ في إحساسي ورغم لا مبالاته يستوطن تفكيري ويسكن شرودي ...

فاجأتُ الجميع بقطرات ساخنة لمعتْ على وجنتيّ وتصارعت مع تعثر لساني وتقطّع صوتي الموجوع من مواقف كثيرة واجهتُها بمفردي وتمنيتُ خلالها لو أنني أسندُ رأسي الثقيل على بقايا نبض تضمّخه رائحته ..

أين أنت يا أبي ؟؟ افتقدناك كثيراً

أجاب بتهكمه وجبروته المعتاد :

كان بإمكانكم زيارتي لكنكم ناقمون عليّ لأنني تزوجتُ من أحب ...

كنتُ أريد أن أحاصر أبوته في نطاق حبي له ولحظات جلوسي إلى جانبه واستماعي إلى أفكاره ورؤاه ...

كنتُ أتمنى أن أتجاوز حيائي هذه اللحظة بالذات فأقترب منه وأحتضنه بقوة وأقول له :

" اشتقتُ إليك "

لكنه أذهلني حين قال :

أردتُ بعض مجوهرات أمك القديمة لشراء بيت يضم أسرتي الجديدة

أدار ظهره غاضبا ثم قال بنبرة أعلى حدة :

لقد رفضت اللعينة إعطائي إياها ظناً منها أن هذا سيغير من نظرتي الحاقدة عليها ونفوري المتفاقم تجاهها ...

إنني أنذركم أنتم وأمكم ... بأنني سأبيع البيت لو لم توفروا لي المبلغ المطلوب ...

أجبته ببرود لم يتوقعه :

بعه يا أبي فلنا الشوارع والمساجد والجمعيات الخيرية ...

ألجمتُه عن الحديث ليتردد في الإجابة وتحار على شفتيه الكلمات التي كان يهرب من مواجهتها مع ذاته ..

فأنا وحدي التي كنتُ أحاصره بالحجج ليخرج باستنتاج ذهني يثبتُ له ذكائي ويزيده يقيناً بحصافتي .....

وحدي التي كنتُ أحاوره وأجذبهُ بحركة يدي حين ألوّح بها في الهواء غير قانعة بما يقول ..

صمت برهة ثم أشار بيده غاضباً :

لن أطيل الوقوف معك يا طويلة اللسان وسأؤدبك لاحقاً ...
وهذا البيت محرم عليكم منذ اللحظة ...
سأبيعه قريباً ...
خرج بعد أن صفع الباب خلفه بقوة وخرجت أمي من دارها تلطم على رأسها فزعة ... مذعورة مما سمعتْ لأنها تدرك حجم تهديده وسرعة تنفيذه لما سيقول ...
لم أستطع يومها أن أحيا حجم الفرحة التي كانت تتسع وتضيق بداخلي ولم أتمكن من التحليق برسالة زاهر الذي كان المتنفس الوحيد لمحنتي ...
بذلتُ يومها قصارى جهدي كي أتحرر منه وأوهمتُ نفسي أنه الآن غارق في دراسته وشؤون أسرته وعليّ أن أكون مثله .
بعد نقاش دام طويلاً قررت أمي اللجوء إلى أبي ياسين الذي تربطه بأبي صداقة قديمة قد يثنيه بها عن قراره ويستدر عطفه لإبقائنا في البيت .. ودفعها قلقها إلى الخروج في وقت غير مناسب وطرق بابه بحكم الجوار فرحّب الرجل بها وذكرها بأيام زياراتها لزوجته وشكواها لها وما أن شكت له الحال حتى فزع غاضباً وقرر أن يواجه أبي قبل أن يسارع بتنفيذ تهديده حيث قال :
من أجلك أنت وبناتك سأفعل المستحيل ...

كنا نجلس متحلقين حول مائدة العشاء ولم يكن أحد منا يفكر في مد يده إلى طبق اللحم المشوي رغم أنه كان يغري أنوفنا بالتهامه ... فقد أعرض محمد عن طبقه وبقي يقلّب هاتفه النقال منتظراً أي اتصال يخبره فيه أبو ياسين بمصيرنا ...

لكن طرقات الباب قطعت صمتنا فهرعنا تجاهه واحتشدنا نحن الأربعة بالقرب من أمي التي أحاطت رأسها بالملفع إلا زاوية صغيرة تمكنها من ملاحظة وجه هذا الرجل الذي سرقت منه تجاعيد الكِبر كل ملامح الجمال والجاذبية فبادرها آسفاً :

عجزتُ يا أم محمد عن إقناعه وبعد توسل طويل منحكم ستة أشهر مهلة كي تبحثوا لكم عن بيت يؤويكم ....

أنا آسف .... فزوجته كانت مسيطرة عليه وقد حرضته على طردي لأنها لم تطق وجودي كما سمعتْ ...

سامحيني يا أم محمد ...

غادر المكان وترك أمي غارقة في شرودها المحاط بالعجز ، فطوقناها بأنفاسنا الدافئة ونظراتنا التفاؤلية :

لا تحزني يا أمي فلنا إله سيحيطنا بوابل رحمته ...

ردت بأسف :

لا لن أتركه يبيع البيت ويشتتني معكم ... سأعطيه جميع ما لدي من مجوهرات ومقتنيات .. فلا حاجة لي بها ولا وقت لديّ لارتدائها ..

قاطعها محمد غاضباً :

لكنه سيعود من جديد كي يطلب المال لأنه جشع وظالم

ردت :

دعنا نتخلص منه الآن يا ولدي ولو عاد من جديد سنكون قد آمنا معيشتنا في مكان آخر

وفعلاً بعثت إليه أمي في اليوم التالي من يقدم له مجوهراتها فابتهج كثيرا بهذا وأعلن عزوفه عن بيع البيت وسعادته بإذعانها قائلاً :

تظن أن تمردها سينفعها ...

ها أنا أرغمتها كالجارية أن تنفذ ما أريد ..

اختليتُ اليوم لأقلّب رسالته بعد أن استللتها من درجي خلسة ووضعتها بين ثنايا كتاب كنتُ أقرؤه ...

وقد فاتني أن أشير إلى أنه في الوجه الآخر من الورقة دوّن لي بريده الالكتروني ورجاني أن أفتحه كل يوم في تمام الساعة الثامنة مساء وأن أقرأ ما سيكتبه لي ...

وعدني أن يكون مهذباً في كلّ عباراته وأن هدفه من هذا هو تعميق إيماني به وبحبه دون رغبة منه أن يقرأ رداً أو إجابة ...

وقررتُ بعد تفكير دام ساعات وصراع مع الذات أن أسمح لنفسي بقراءة ما يكتب حتى لو كان في هذا نهاية عمري ؟؟

صعبٌ عليّ أن أهرب من لهفته أو أتجاوز بريق حماسه أو أستنكر براعة تعبيره ...

قال عن نفسه أنه غير حاذق في الاحتيال على اللغة لكنني اكتشفت حذاقته في الاستيلاء على القلوب وتطويعها أسيرة بين يديه تستجدي عذوبته وتنبض بحبه ...

فتحتُ جهازي فوجدتُ في بريدي ثلاث رسائل سابقة كان قد بدأ الكتابة فيها حسب الموعد الذي حدده وكانت كالتالي :

الأولى :

لستُ مسؤولاً عن أي رجفة تباغتني وأنا أكتبُ إليك ...

فقد تعودتُ على هذه الرعشات وكأنها إرهاصات إحساس لم أبحث عنه بداخلي ... لكنه هو الذي بحث عني وقربني إليك ...

إنني أسائل نفسي ... كيف أحببتك ؟؟ ولم أرك ؟!

كيف تمكنتِ مني وأنت بعيدة عني ؟؟؟

هل جنون هذا يا سيدتي يمس فيه المحبوب حبيبه عن بعد ؟؟

أم هو سحر تمارسين خلاله تعاويذك في زوايا روحي دون أن أشعر ...

صدقيني أنني قاومتُ إحساسي بك ... وتجاوزته باستخفاف ظناً مني أنه (حب مراهق) أو شاب (فاقد للعاطفة) لكنك تتسربين في مساماتي ببطء دون أن أشعر و مع مرور الأيام ازددتُ إعجابا بكفاحك وصبرك

وثباتك أمام ريح هوجاء كانت تعصف بأنوثتك وتشتت الكثير من آمالك ...

أعجبتني صراحتك في التعبير عن ذاتك وفي تقديرك لمن حولك ممن هم أهل للتقدير ...

يجب أن أنهي حديثي فلدي الكثير أخبئه في غدي

تحياتي ...

زاهر

الرسالة الثانية :

لا تعتقدي أن صمتك أمامي يثير حفيظتي أو يربك تمسكي بك ... أنت بالصمت (عملاقة) وامرأة حرة معرضة عن المنكر ومترفعة عن الخطأ ...

أنت في نظري ملاك يغتسل بالسحب ثم يمطر عليّ وابل الطهر الذي يعصمني من الزلل ويطوقني بالأمان ...

ليس المهم أن تجيبي ...

فلم أنتظر أن أقرأ منك رداً يشجعني على ممارسة فعل الغرام الذي قد يجرني إلى مهاوي الرذيلة ...

أنا لا أمثل عليك دور العشق ولا أتقمص دور المجنون الواله دون حق ...

لأنني قبل كل شيء مؤمن برجاحة عقلك وسمو تفكيرك وعفة إحساسك ولولا هذا لم أتقدم خطوة واحدة كي أنصب أشرعتي أمام ساحلك ...

اقرئيني بهدوء وثقي بي ...

ثقي أنني رجل يتحفظ على إحساسك من الخدش والتهاون ... ويدرك أن طينتك طينة " شفيفة " كقطعة زجاج تزداد لمعانا كلما أمعنا النظر إليها وتسمح للضوء أن ينفذ خلالها دون أن يمسها بسوء " ...

دانة :

أيتها النخلة الطيبة التي نبتت في خصوبة أرضي وامتدت بطولها الفارع كي تظلل هجير أبعادي ...

ستبقين شامخة

" كلما رموك بالحجر تعطين أطيب الثمر "

لقد دعوت الله في أقرب لحظات انقطاعي إليه وتوسلي به أن يجمعني بك بأسرع وقت ممكن ولدي يقين به سبحانه وتعالى أن رجائي له لن يخيب ....

تحياتي

زاهر

الرسالة الثالثة :

اليوم خرجتُ مع أصدقائي في رحلة بحرية وبمجرد أن رأيتُ البحر تذكرتك ...

تذكرتُ إعجابك الشديد به ورغبتك العارمة في الهروب إليه حتى لو كان لموجه أجراس تشبه أجراس الموت ...

كنتُ أرصد كل تعليق تنقله مرام عنك في ذاكرتي وأتغنى به صدى بين شراييني ...

وكأنني أحياك في كل هواجسي ووسوساتي التي تختلجني بين الحين والآخر ....

تحدثتُ معك طويلاً وكان جوابك حيا بين أصوات الموج الذي اقترب مني بهدوء كي يبلل وجوم قدميّ ...

ضحكنا كثيراً أنا وسعد وهادي وتجاذبنا أحاديث كثيرة وكنتُ أتغافل عن حديثيهما كي أرحل بشرودي إليك وأتمتم بما لدي أمامك ...

لا أعرف لماذا يراودني إحساس غريب أنك تسمعينني وتعلّقين على كلامي وربما تعرضين عن بعض عباراتي حين لا تروق لكبريائك .

ولو لم يكن لدي هذا الإحساس لما سمحتُ لنفسي أن أناجيك بما تحمله لك جوارحي من حنين وانتماء ...

..

أتمنى أنك بألف خير

تحياتي

زاهر

قرأتُه عن كثب وضحكتُ كثيراً على تفرده المريب في الوصف ؟؟؟

من هذا ؟ الذي أحببته دون أن أعرفه ؟؟

عاشق ،

ساحر ،

كاهن ،

أم معتوه تنطبق عليه كل أوصاف الجنون !!!...

ماذا أفعل ؟

هل يحق لي أن أحبه ؟

قررتُ بعد تفكير ممل أعرضتُ فيه عن كل وصايا أمي :

أنه لا ضير من هذا الحب طالما أنه لا يجرني إلى المحظور ولا يغريني بالمنكر ..

(إنه أجبرني أن أكون له) ..

أجبرني على قبوله ... على انتظاره ... على ترنيم كل كلمة يكتبها لي كي تخالج روحي دون انتظار ...

إنه يقيني الذي لا يمكنني أن أشكك في حقيقة وجوده أو أحيد عن إيماني به ...

إنه عالمي الذي خبأه لي القدر دون منة ...

إنه صداي وامتدادي وحدودي ....

وجدتُ نفسي أنتظر رسالته كل يوم بقلق أمام شاشة جهازي ...

فمرة يكتب عن أصدقائه ومرة يكتب عن هواياته ومرة يكتب عن أصناف الطعام التي يحب التهامها لحظات الجوع القاتلة حين يعاند نفسه بالجلوس على الانترنت لأوقات طويلة ويعزف عن تناول الطعام متجاهلا كل نداءات البيت له ...

أدهشتني رسالته السادسة حين كتب :

اليوم هربتُ منك إلى قلقي الذي ما انفك يطارد تفكيري وحين دخلتُ إلى غرفة أختي مرام ... شممتُ رائحة غريبة لم أعهدها في غرفتها من قبل ... فسألتها عنها ولم ترد ؟؟؟

وكنتُ كلما استرسلتُ في الحديث معها عن أمر ما ... عدتُ من جديد أتساءل عن مصدر تلك الرائحة العجيبة ؟؟

هل تتوقعين الإجابة ؟؟؟

وهل يا ترى تحدثك نفسك بما سأقوله الآن؟؟؟

ربما !!

في الحقيقة فاجأتني مرام حين قالت لي أنها تضع العطر الذي أهديته إياها في عيد ميلادها ..

والذي أعتقدُ بقوة أنه نفس العطر الذي تضعينه الآن ؟؟؟

لا تسأليني عن كل هذه التوقعات لأن العطر بالنسبة لي " أنثى " تفيض عذوبة وجمالاً

فكيف إذا كان هذا العطر يسكن روحاً تمنح عالمي الجمال !!...

أرأيت كيف تحقق هروبي منك ثم إليك ؟؟؟
أأدركتِ حجم انتمائي لك وإحساسي بك ؟؟؟
لستُ مجنوناً كما تعتقدين ؟؟؟
ولا عابثاً كما تتوقعين ؟؟؟
ولا تائهاً عن أهدافي أو مستقبلي ولكنني بصراحة :
محبٌّ يعيره غرامه حواس مختلفة عن حواس البشر كي يراك بها .. كما أنت

****

وصلتُ إلى السطر الأخير ولم أره زاد شيئاً عما كنتُ أقرؤه ولا أعرف كيف أتت أصابعي على لوحة المفاتيح لأكتب سؤالاً واحداً اعتقدتُ أنني سأقرأ جوابه في اليوم التالي :
من أنت ؟
ارتعدت فرائصي وحاصرتني الدهشة حين ظهر لي على الشاشة وجه مبتسم أعقبه جوابه :
أنا زاهر
كان يبدو أمامي (غير متصل)
فكيف ظهر هذا المشاكس فجأة ؟؟؟
إنها حركة غريبة لم أتوقعها منه وتجرأتُ بعد تردد لإتمام محادثتي به :
أعرفُ أنك هو ...

إلا أن سؤالي يعني : من أنت كي تخرج في حياتي فجأة وتسعى إلى قلبها دون سابق إنذار ؟؟؟

هل أنت محق في كل ما كتبتهُ عني ... وهل هو إحساس حقيقي خالٍ من العبث ؟؟؟؟

فالحياة ليست غراماً تتلفعه الكلمات الجميلة ... الحياة كفاح يشغلنا حتى عن رعاية أنفسنا ؟؟؟ فكيف بمشاعرنا التي تراها أنت أصدق تعبير عن حقيقة علاقتنا ؟؟؟

(كنتُ أكتبُ له بحذر وأنا أراقب باب الغرفة خشية أن يباغتني أحد بالدخول دون أن أشعر)

فرد عليّ بسرعة لم أتوقعها :

لا يهمني إحساسك بي الآن ...

وتأكدي أنني لا أكتبُ ما أكتب كي أعبث بمشاعرك ... وما بداخلي أكبر من استطاعتي على الكتمان ...

أنا لا أفكر أن أحيك معك قصة عشق مجنونة تبدأ بكلمة وتنتهي (بحرام) وسأكون على وعدي لك بعد عشرة أيام من هذا اليوم ... وهو المبادرة بالخطبة عن طريق والدتك ...

هذا أكبر دليل لدي على صدق تعبيري ...

وما أفعله الآن مجرد مشاعر أردتُ أن أبوح لك بها دون " مقابل "

فإذا كانت تسبب لك إزعاجاً فسأكتفي بكتابتها في صفحتي الشخصية دون إرسالها إليك .

انتظرتُ قليلاً أتأمل ما كتب كي أتقن ردي عليه فقلتُ :

سألتك سؤالاً لم تجبني عليه بعد ؟؟؟

ذكرت في رسائلك أنني شفيفة و ..... و.....

والكثير من الأوصاف التي تعبر عن ذاتي وأسلوب تعاملي مع الناس فكيف عرفتَ كل هذا ؟؟ ولمَ بحثتَ عني أنا بالذات رغم أنني ...

(قاطعني)

لن أخبرك بتاريخ تعلقي بك وليبقى مرصودا في ذاكرتي وأرجوك لا تفكري قطعياً أن دخولي غرفة مرام ذلك اليوم الذي كنتِ موجودة فيه هو عمل مخطط له وكل هذه التفاصيل ستعرفينها بعد العقد ...

(أعدك بذلك)

والآن اسمحي لي بإنهاء المكالمة مرغماً لأن صديقي سعد ينتظرني عند الباب ... لا تفكري بما قلتهُ كثيراً وانتظري وعدي بألطف دعواتك ...

لك مني أخلص التحايا وإلى اللقاء ...

إلى اللقاء

أنهيتُ الاتصال وأنا أبتسمُ بمكر ...

تجاوزتُ قوانين أسرتي ومجتمعي تجاوزاً مباحاً أغرتني به عاطفتي ...

انتفضتُ فزعة على صوت هاتفي الذي بدا وكأنه يرن لأول مرة وكانت المتصلة مرام ...

لا أعرف لم كان استقبالي لها حاراً على غير العادة ؟

ولم أغدقتها بكلمات الاشتياق والحب حتى صمتت عاجزة عن الرد؟ ...

كان حديثنا عاديا سوى بعض الملاحظات التي دلتني بها إلى كيفية تسجيلي في الجامعة بعد قبولهم لتخصصي الصحي وقد اخترنا معاً مجموعة المواد التي سنسجلها في السنة الأولى ...

نسيتْ مرام أن تعاتبني على انقطاع اتصالي بها لفترات طويلة وأظن أن احتوائي لها في بداية المكالمة كان كفيلاً بتشتيت كل جمل العتاب التي رصدتها لي قبل أن تتصل ...

شعرتُ أنها كانت بحاجة شديدة إلي وكأنها تحدثني للمرة الأولى أو لعلها افتقدتني و شعرتْ أن بي ما يشغلني عنها ....

ليلاً .....

ظهرت أصوات جلبة في الخارج دفعتني إلى تفحص الأمر لأرى جدتي ضيفة علينا ...

احتضنتها بحرارة ثم قبلتُ يديها وواجهتُ معاتبتها لي بابتسامة عريضة أشعرتها بالسعادة وجعلتها تغير مسار حديثها قائلة :

(غلبتني يا ساحرة)

أقبلت أمي تحمل أطباق العشاء اللذيذة ...

أكلتُ ليلتها بنهم ...
ولم أشعر بالتخمة ...
وضحكتُ ليلتها ضحكات هستيرية لفتت انتباه الجميع ...
ظلت ضحكاتي وابتساماتي محفورة على ذاكرة من هم حولي ...
تحت عنوان خفي ملون بالسعادة ....

(٦)

آخر رسائله :

بعد ساعات فقط سأجتمعُ بأسرتي ، وسأقرأ عليهم أدق تفاصيلك ... سأصفك لهم بما تسمحه لي أبجديتي الضيقة والتي قد تتسع لتشملك وحدك فقط بكل أبعادك وحدود وصفك...

فصعب على مثلي أن يختصر ...

لدي بعض الأشياء التي كنتُ بارعاً في اختصارها ... كمسافات الطرق ، وحسابات الرياضيات ، وحدود الخرائط ، ومنافذ العمليات الفيزيائية المعقدة ...

إلا حبي لك ؟؟

رفضتُ بشدة أن يكون محصوراً في أربعة أحرف استهلكها كل الناس وتغنى بها كل المحبين الذين أعدّ نفسي مختلفاً عنهم ...

حتما ستمر الساعات القادمة ثقيلة عليك وستساورك الشكوك وستخافين صعوبة الاختبار الذي وضعتك فيه أمام كل ما فعلته وسأفعله من أجلك ...

انتظري كل تكهناتك بي ...

انتظري يومي القادم إلى تاريخك ....

كل التحايا

زاهر

أقفلتُ جهازي وبعد مضيّ ساعتين أضحتْ كل توقعاته صحيحة فقد تسرب القلق إلى تفكيري واستحوذ على خطواتي وجميع ما كنت أخطط فعله ذلك اليوم ...

تنازلتُ بسهولة عن موعد كنتُ سأرافق فيه علياء إلى السوق لإتمام تجهيزات عقدها الذي بات وشيكاً ..

تقاعستُ بتعمد عن غسل الصحون وتنظيف المطبخ ولم أكترث بإلحاح أمي عليّ أن أتم واجبي البيتي ...

لم ألتفت يومها إلى مادة الأحياء التي كانت تستغيثني كي أحملها من رقدة الأرض وأتركها منتظمة فوق الطاولة ...

أذكرُ أنه يوم اكتظ بمهاتفات الصديقات للاستفسار عن بعض صعوبات الأسئلة ...

فوضعتُ هاتفي على الصامت واكتفيت بالنظر إلى وميضه خوفاً من أن يتصل ولا أجيبه وحين دب اليأس إلى انتظاري رميته في درجي وكأنني أهرب من سيطرة القلق الذي كاد يخنقني ببطء...

كان عليّ الآن أن أصلّي ... فالصلاة عروج مريح إلى الساحة الإلهية ... وكلماتها المقدسة تتسرب إلى الروح ضياء يشع جوانبها طمأنينة وسكوناً ...

وبعد الصلاة :

جلستُ على مصلاّي لأدعو لنفسي بالفرج وكانت الخاتمة (دمعة ساخنة) ...

أقنعتُ نفسي بعد تردد بالاتصال بمرام ، وقد أحسست بتسارع غريب في نبضي مع أول رنين أطلقه جهازها في أذني ثم فوجئت بردها قبل إتمام الرنين الأول وكأنها كانت تنتظرني ...

وأخيراً اتصلتِ ؟؟؟؟

قالتها بنبرة غاضبة حادة دفعتني لإبعاد الجهاز عن أذني ..

كانت مفاجأة موجعة على قلبي أن أسمع سيلاً من الشتائم والإهانات التي لا قبل لي بتحملها من عامة الناس فكيف بمرام ...

اتهمتني بالقبح والمكر وكيف أنني خططتُ بهدوء كي أستولي على قلبه ومن ثم أغريه بالزواج مني وحين قررتُ الدفاع عن نفسي وإظهار براءتي أقفلتْ الخط كي تحرم صوتي من أصدق تعبير عن الحقيقة وأقوى صرخة تترجم الضعف ...

بدأتُ أبكي بطريقة هستيرية وقد اختبأت يومها في كل غرف البيت .. ودورات المياه والممرات والزوايا المظلمة خوفاً من أن يكتشف أحد ما بي أو تطّلع أمي على حقيقة ما تعرضتُ له...

كان إحساسي مزيج خوف وألم يخبئان لي تنبؤات غد مرعب وشائك ومليء بالعثرات ...

يااااه ...

هل يمكن لمرام أن تتجاهل إخلاصي ونبل مشاعري أمام ظن ساور تفكيرها الممتلئ غيظاً ؟؟؟؟

لم اتهمتني بكل ضراوة وجبروت متناسية طيب تعاملي وتلقائية تصرفاتي ؟؟ ...

إنها الأقرب إليّ ومحرم عليها أن تشك لحظة واحدة في تجاوز غير أخلاقي قد يصدر مني مع أخيها !!!

لم أنم ليلتها دقيقة واحدة وكان عزائي الوحيد أن يبقى جهازي مفتوحاً علني أجد منه بريق أمل يضيءُ ليلي أو يخفف عني عبء هذا الهم الذي تكالب عليّ ...

للأسف لم يكتب شيئاً وبقيتُ في حالة وجل عدة أيام كانت مرام تهرب فيها من مصافحتي وتتجنب أي لقاء يجمعني بها دون أن يلاحظ أحد شيء بيننا ...

بعد خمسة أيام من هذا الحدث وبينما كنتُ أتأكد من كمية المبلغ المتبقي في محفظتي ومدى كفايته لشراء بعض حاجياتي من السوق العام فاجأتُ أخي محمد بتراجعي عن الخروج ورغبتي في البقاء معللة ذلك بدوار حلّ بي ....

لم يكتشف أحد سرّ هذا العدول المفاجئ ..

والحقيقة أن رسالة قصيرة وصلتني منه تقول :

سأتصل بك في الرابعة والنصف أرجو منك الانتظار ...

في الرابعة والثلث دق هاتفي فلم أترك له فرصة الرنين ولم أدع لهفتي تعاني الانتظار مع مقاومة تلك الرعشة اللعينة التي قلبت تنظيم خلاياي وأجبرتني على الجلوس ...

ألو ...

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ..

رددتُ السلام بهدوء ثم بادر يقول :

لم أتصل كي أعيد تاريخ ما حدث بيننا وإنما لأشرح كل ما حدث ...

أجبته بعد ثوان :

تفضل ...

كان صوته حزيناً ... يائساً .. متقطعاً بسعال شديد أشعرني بالخوف وكأنني أستمع إلى صوت هرم يعيش حالة احتضار تملأ حنجرته بؤساً ...

قال كلاماً كثيراً لا أذكره ولكنه كان متعقلاً في جميع مبرراته ، وقد أدركتُ حجم الرفض الذي واجهه أهله به حين أفصح عن رغبته في الارتباط بي ، فوالدته وأسرتها العريقة مصرون على تزويجه فتاة من عشيرتهم ...

لم يعقب بأكثر من :

لو تقدم أحد إلى خطبتك فتزوجي ...

ولو لم يحدث ؟؟؟

فهل تسمحين لي بأن أقول لك
انتظريني ؟؟
أعرف أنه طلب وقح ولكن أعدك بأنني سأكف تماماً عن مراسلتك وسأمتنع عن الاتصال بك حتى يفرج الله الأمر ويحدث بيننا ما يجيز لنا فعل ذلك ..
استأذن بنبرة هادئة وأظنه كان يكفكف دموعه لأن صوته كان يغيب عني لحظات ثم يعود إليّ مشوباً ببحة مخيفة ...
أقفل الخط طالباً مني الإلحاح في الدعاء له ولم يدرك كيف سلب مني بمكالمته هذه كل توازني فغدوتُ أحبه أكثر مما مضى وأجد نفسي رهينة بين يديه ...
كانت المكالمة قصيرة جداً لم تتجاوز الخمس عشرة دقيقة ...
مكالمة قال فيها الكثير من الكلمات وكان مصراً فيها على موقفه الصادق وعجزه عن مخالفة أهله لكونه وحيدهم ...
لذا قررتُ بعد تفكير طويل أن أصبر وأن أقدم تنازلاً عن كل ما حدث من مواجهة بيني وبين مرام ...
حاولتُ أن ألتمس لها المبرر وأن أعلق موقفها تجاهي بحبها الشديد لوالدتها وانتمائها الأسري لعائلتها ...
مرت علينا أيام سعيدة دخل فيها عادل حياتنا بموجب العقد الذي حرره الشيخ حين قالت علياء : نعم

باركت نساء القرية العقد وتهامس بعضهن عليّ إذ سمعتهن يتداولن كلاما لم ألتفت إليه وهو

" قلة حظي في الجمال "

وبالتالي :

تأخري عن الزواج ...

إلا أن ذهني حينها كان يحده من كل الجهات فحصاره لي ليس مجرد كلمات سمعتها منه بل هو موقف رجولي جعلني أثق به أكثر وأؤمن أنني أسير إلى رجل حرّ يسمو بذاته ويترفع عن كل دنس قد يلوث جمال روحه ...

أظهر حبه لي ولم يلتفت إلى درجة ما أملكه من نضارة بل اكتفى بجاذبية الروح التي كانت تشده على حدّ تعبيره ...

لم يزعجني الحفل الضخم الذي تكفل به عادل من أجل علياء ولم أحسدها لحظة مرورها بين النساء وهي تتمايل جمالاً وأناقة وفتنة ...

لم أتأوه حين احتضن عادل يديها ثم قبلهما بشوق ..

كنتُ مكتفية بالنظر إلى من حولي من الناس وتقديم ابتسامة هادئة لهم رغم أنني أتلظى حسرة لفقد مرام التي طالما حلمت بمشاطرتي أقرب مناسبة سعيدة تمر بي ...

الجميع يبارك لي بحرارة ويدعو لي بالزواج العاجل وأنا أحاور نفسي بهدوء :

نصيبي موجود وأحبه ويحبني لكن الزمن أخذ يفصل بيننا بفاصل التقاليد التي لا ترحم ... فابن المدينة لا يطيق الزواج من ابنة القرية وابن الجاه لا يتزوج من الفقيرة وهكذا ....

مضت عليّ الأيام وأنا انتظر لحظة قدومه إلى حياتي ...

أنتظر لحظة اقتراني بروحه التي كانت تحلق بخيالي إلى قدر جميل طالما حلمتُ به ...

مرّت عليّ أيام عديدة وساعات طويلة حاورتُهُ فيها وجاذبته الضحكات وأقسمتُ في نهاية حديثي أن أعاقبه بالهجران وأن أحرقه كمداً بالإقصاء لكنني سرعان ما عدتُ إليه لأشكو إخفاقي في مادة صعبة أو أتذمر من صراخ والدتي بعد أن تكالبت عليّ أعباء البيت وحدي ....

أو أطالبه بشراء بعض حاجياتي التي يعتذر محمد عن شرائها ...

كل ما كنتُ أفعلهُ كان خيالاً ولكنه كان لذيذاً ... عذباً ... مُجازاً ... لم أرتكب خلاله حماقة أو أمارس فيه ذنباً لا يعذرني الشرع المقدس عليه ...

كان شراعاً يمخر موجي ...

هطولا يغمر جفافي ويتيح لهويتي فرصة البحث عن وطن تحط فيه رحالها بعد تعب استنزفتني فيه السنين بين أسرة مفككة يغيب عائلها ويمارس ذكورها أبشع استغلال للقوامة ....

لكن كل الأحداث كانت ضدي فقد تناهت إلى مسامعي معلومات جادة أخبرتني بها (بتلاء) التي تسكن في بيت يجاورهم في مدينة الهفوف أن والدته تحاول تزويجه عاجلاً وأنها تلح عليه قبول فتاة اسمها (لمياء) تعد من أجمل فتيات عائلتهم وأكثرهن جاذبية ورقياً وذوقاً ...

لا أنكر أن هذا الخبر نزل على سمعي كالصاعقة!!!!

فانتفضتُ يومها ذعرا وتململتُ على فراشي أسفاً ...

كنتُ أعاني وحدي ... وأتمرد على صمتي ... وأحاور فوضى وساوسي ...

حتى علياء التي أصبحت الصديقة الأثيرة بعد إعراض مرام عني يضيع وقتها اليومي بين محادثاتها الهاتفية وبين خروجها المتكرر برفقة خطيبها ...

لذا وجدتُ نفسي في ذلك اليوم مضطرة إلى تحطيم كل حدود الاتزان وفتحتُ هاتفي المحمول واتصلتُ به .....

أنا التي اتصلتْ للمرة الأولى ... وكأنني أريدُ أن أوحي له بحجم تعلقي وتفاقم شوقي وقلة حيلتي ...

استمر الخط يرن ولم أجد رداً ..

كررتُ الاتصال يومها عدة مرات فلم يرد وجربتُ حظي في اليوم الثاني والثالث ولم أجد منه جواباً فقادني تفكيري إلى نهاية مأساوية مفادها أنه

لم يعد يرغب في زواجنا وأن طاعته لأهله ستجبره على الزواج بمن يريدونها ابنة لهم ...

أو لعله كان كاذباً يحاول العبث بمشاعري كما يفعل غيره من الشباب ...

هكذا أغلقتُ باب تفكيري به وبدأتُ أخطط كي أشغل وقت فراغي بالكتابة والقراءة والخروج إلى أي مكان تسمح لي ظروفي بالفرار إليه ... لن أبالغ لو قلتُ أنني كنتُ أتعمدُ أخذ أسامة رفيقاً لأجوب شوارع القرية ذهاباً وإياباً مطلقة العنان لأفكاري كي تلهث معي على سواد الأسفلت الذي كان توهجه من حرارة شمس النهار يشعرني بالدفء ...

وكم مرة حدثتني نفسي الاتصال بمرام ولكن التردد كان يشل حركة يدي ويدفعني إلى الخلف عدة خطوات خوفاً من تهكم قد أسمعه أو لفظ جارح قد تباغتني به ...

فقد أخبرتني بعض الزميلات أن والدتها لامتها كثيراً على علاقتها الحميمة بي لأنها جرّت أسرتهم إلى ويلات لم يخططوا أبداً للوقوع فيها ...

في مساء أحد الأيام .. لبستُ عباءتي استعداداً للخروج برفقة علياء التي دعتني إلى تناول القهوة في أحد المجمعات التجارية حيث سينقلنا عادل إلى هناك .... وما أن هممنا بالخروج حتى صادفنا العم أبو ياسين عند الباب وكان يحمل سلال الفاكهة والتمر بكمية كبيرة أصابتنا بالدهشة ...

طلب منا التنحي ودنا من الباب ثم وضع السلال داعياً لنا أن نأكل ما فيها هنيئاً مريئاً ثم توارى بعد ذلك كي لا يبقى من هيكله إلا انحناءة الكِبر التي كانت بارزة في احدوداب ظهره وبطء حركته ...

قضيتُ مع علياء ليلة سعيدة وتمنيتُ أن يطول الوقت أكثر ...

لا أنكر حقيقة ما فعلتُهُ ليلتها حين كنتُ أتفحص وجوه الرجال ظناً مني أنني قد أراه ماثلاً أمامي عند أحد المحال التجارية أو عند شباك أحد مطاعم الوجبات السريعة ..

خاب أملي وعدتُ إلى سريري أفتش في صندوق الوارد بهاتفي دون جدوى ...

فلا رسالة ؟؟

ولا إشارة ؟؟

ولا اتصال؟؟

وأخيراً أرسل لي في تمام الساعة الواحدة بعد منتصف الليل ملفاً كتابياً يتضمن كل رسائل الحب التي كتبها على جهازه كي يهديها لي بعد خطبتنا التي تلاشت للأبد ...

فلم يعد لي

ولم أعد له...

وهو مرغم على الإذعان وقبول أوامر أهله ...

لم أستطع فتح الملف ليلتها فقد كنتُ منهارة حتى الموت واكتفيتُ بالنظر إلى رسالة قصيرة تتصدر الملف كان يقول فيها وعيناه تمتلئان دمعاً كما ذكر :

(لن نكون لبعضنا أبداً)

بعد أيام تحدّيت رفض أهله لي وتعاليهم على أسرتي وأجبرتُ أصابعي المكدودة على فتح الملف وكأنني أعزي نفسي بقراءة ما يقربني إليه أكثر ويصرفني عنه أكثر ..

برر تجاهله لاتصالاتي بأنه كان يعاني من مرض عضال ألزمه الفراش ومنعه القدرة على الاتصال أو الرد ...

كان متعباً ... مكدوداً ... شاحباً ... يتوارى عن أعين من حوله إلى متاهات صراع يحيطه خوفاً ويشعره بالتجني والذنب ...

فتحتُ ملفه الأخير والذي اشتمل على كلام لم يؤثر بي كلام مثله في هذه الحياة حيث كتب يقول :

صحوتُ على صدى صوتك فرحلتُ فيه دون أشرعة وبعدها انتابتني حالة جنون عجيبة دفعتني كي أكتب ...

لا اعرف عند أي مرساة سأقف وإلى أين سيأخذني موجك ... أنا متعب جداً وعاجز عن الهروب من قيود مبادئي وحدود فرضياتي ...

فأنا أحبك بكل معاني الحب لدى

العقلاء ... والمجانين .... والكهنة ..

أحبك ببراءة الأطفال .... وهمجية المراهقين ... واتزان الكهول ...

وأنت لستِ هنا طاغية الفتنة ؟؟؟

أنت :

طاغية الحضور ....

فعطرك لا يزال حياً يأسرني ...

فماذا أصنعُ بهذا القدر الذي يغمرني بك ويعيد هطولك عليّ بعد سنوات خبأتكِ فيها السحب لأغتسلك ماءً نقياً

(يشغل حواسي) حتى اللحظة ؟؟؟؟

لذا علميني طعم الصمت في لحظات الجنون ...

أرشديني درب الرحيل دون طريق وصوت الحنين دون صدى ...

علميني كيف أبكي كي أمهد لروحي يوم فراقك ولحظة إبعادك مرغمة عني ...

علميني كيف أعودك على عدم البكاء ... حتى إذا انهارت قواك واحتضر انتظارك وتلاشى ترقبك ...

فلا يجوز في شرع الحبّ للعينين الجميلتين أن تبكيا بشدة !!!

بل عليهما أن تستنطقا الغيب ... ثم ترحلان إلى قدر أبيض مطرز بالجمال ...

هذا ما آمله لك إذا افترقنا ...

أعتقيني من كل أخطائي تجاهك.. حرريني مما فعلته بك حين كتبتُ لك كلاما جميلاً ولم أشعر يومها بمسؤولية ما كتبتْ وأثره على عقلك وجوارحك ...

فأنا رجل عاجز عن حمايتك مني ... رغم عدم قدرتي على ضمك إلى جناح رجولتي

سامحيني

سامحيني رغم كل الدمعات التي تهدر الآن من عينيك

سامحيني على صمتي ...

ووجومي ...

ومرضي ...

وحالة النفي الأبدي التي سأعتزل فيها العالم وهو (أنت)

زاهر

لم أستطع حبس دموعي ولم أستطع حذف الرسالة التي قطعت آخر شريان يضخ حرارة الحب بيني وبينه ...

أخذتُ ألوم نفسي على كل محاولاتي للاقتراب منه فهي تجاوزات يحكم عليها الشرع أنها (حرام)

حرام اجترحته دون اكتراث ...

ودون حساب ...

ودون تردد ..

وظننتُ أنها محاولات ناجحة كي أتزوج رجلاً أحبه ... لا ذكراً تفرضه عليّ أصول العلاقة الزوجية بمجرد رؤية والدته لي وإعجابها بي كما يحدث في مجتمعاتنا ؟؟

أخيراً

أقفلتُ جهازي كي أوهم نفسي أنني سأنام وأنا أرجو من خالقي ....

أن أنام إلى الأبد ..

(٧)

هذا اليوم يوم عصيب على بيتنا ففي حين انشغالنا الشديد بالتجهيز لحفل زفاف علياء الذي يقترب منا بفاصل أسابيع جاءنا خبر من أبي ياسين يجبرنا فيه أبي على سرعة إخلاء البيت كي يبيعه منتفعاً بثمنه .. واستمر نحيب والدتي المتواصل وإضراب الجميع يومها عن الطعام احتجاجاً على تعنت والدي وقلة اكتراثه بنا..

حيث أن قلبه الصلد وتوسلات أبي ياسين به لم تحرك ساكناً ...

بقيت أمي فترة طويلة تتحدثُ عند الباب وكان صوتها مرة يعلو ومرة يخفت وكأنها ترد عليه ردوداً تفضل ألا نسمعها فيها ...

وبمجرد أن أغلقت الباب هرعت إلى غرفتها تخبئ بين عينيها أحداث شتى وتهرب من حصار يوترها ...

استمرت أمي واجمة عدة أيام وبدأت الريبة تتسرب إلى تفكيرنا حين كثر تردد أبي ياسين على بيتنا وكثرت الحاجيات التي كان يحضرها لنا بسبب أو دون سبب ...

لم يكن أحد يرصد ما يحدث سواي فمحمد منشغل بعمل إضافي وعلياء تصارع الوقت كي تعد عدة انتقالها إلى بيت الزوجية مع تكهنات حول كيفية مواجهتها للحياة ولطبيعة هذا الشخص الذي ستعايشه ومدى حبه واحترامه لها ....

فقد برز عادل رجلاً حراً ... وزوجاً حانياً ... يقدس المرأة ويمنحها فيض عطفه واحترامه لكن أيام ما قبل الزواج لا تعد مقياساً لحياة زوجية تتخللها مواقف حياتية صعبة ومواجهات مع ظروف قاسية يبرز فيها جوهر المرء ومعدنه الحقيقي .

كانت ليلة زفافها مقمرة يجرّ فيها البدر خيوط السحب لتعبئ صفحة السماء بياضاً يشتت خوف عتمتها ...

ولم يكن هناك بد من أن تكون الدعوة عامة لأن عادتنا نحن ـ أهل القرية ـ تفرض علينا التواصل مع كافة أفراد مجتمعنا واحترام وجودهم في أي مناسبة اجتماعية تمر بنا ما بين فرح وحزن .

فكانت القاعة تضجّ بفوضى الحضور الكثيف وحكايات النساء والفتيات عن أحوالهن وقد تحلّقن حول الطاولات في ازدحام بيّن يعيق الحركة بين منافذ هذه الطاولات التي تركت شقاوة أطفالهم بصماتها على نظافتها وتنسيقها ...

أحسستُ بيدين تغمضان عينيّ من الخلف ورائحة عطر جميلة تنفستها بارتياح ، كانت هي صامتة وكنتُ أخمّنها وكلما نطقتُ اسماً خاب أملي بأنها ليست هي ، حتى تخيلتُ أنها قد تكون مرام لكنني لن أحار بعد كل هذه العلاقة في خطوط يديها أو استقامة أصابعها ...

وحين يئستُ ..... صَرختْ غاضبة :

أنا بتلاء !!!

استدرتُ لها واحتضنتها بشوق فهي زميلة دراسة مميزة وهي شخصية نادرة في رقي الذوق وجمال الروح ، لذا استمر حديثنا طويلاً وتخللته تساؤلات كثيرة عن غياب مرام وقد فاجأتني بخبر عقد قران زاهر ولمياء وهي غير مكترثة بما قد يحدث لي لحظتها ...

فلم تدرك بتلاء حجم الألم الذي أصابني ولم تلتفت إلى تغير لوني وشحوب وجهي وتصبب العرق من جبيني رغم برودة المكان وحين صرختُ في وجهها :

هل أصبحت زوجته ؟؟؟؟

أجابتني ببرود :

سمعتُ أنهما سيعقدان قرانهما هذا الأسبوع بناء على طلب الأمهات بالتعجيل .

لم يكن بوسعي أن أفعل شيئاً فأنا مستسلمة لقدري وراضية بكل ما يحدث لي ... وإن كنتُ أذنبتُ لأنني أحببته فلعل بعض اللحظات مرت عليّ وأشعرتني بأن في ثنايا هذا الذنب حلاوة لا أعرف من أين مصدرها ...

خارت قواي وشعرتُ بدوار خفيف في رأسي فاكتفيتُ بالجلوس على أحد المقاعد وأدرتُ وجهي إلي جميع أنحاء القاعة ...

لم أكن أسمع شيئاً ... لا ضجيج ولا حديث ولا ضحك ولا صخب ولا غناء ...

ونسيتُ ليلتها حقيبتي على الطاولة بكل محتوياتها من نقود ومفاتيح وبطاقة صرف آلية وبعض الإثباتات المهمة ...

كنتُ أسمعُ صوته وحده وهو يبكي حسرة على فراقي ..وأتذكر نبرته الهادئة وهو يودعني للرحيل إلى مصير مجهول ينتظرنا معاً ..

عدنا إلى البيت بعد وداع اختصرته الدموع في عينيّ علياء التي احتضنتني مدة وأوصتني بنفسي ...

استلقيتُ على سريري أعيد شريط ذكريات جميلة لأيام أتنبأ بعودتها إلى حياتي وكنتُ أقاوم حرارة الدمع الذي كان يهطل بغزارة على خدّي ....

شعرتُ حينها أنني غبية وتافهة لأنني سمحت لنفسي أن تحبه ورضيتُ لقلبي أن يؤمن به ...

وافقتُ أن أقرأ رسائله ووافقتُ أن أسمع صوته دون رقيب وكنتُ أظنهُ سيصبح لي ... وستنتهي حكاية غرامنا بشقة صغيرة أسمعه بين كل جدرانها وأستقبله من جميع أبوابها ... سرقني نوم عميق رغم أن خيوط الشمس هاجمت غرفتي لتستقر في وسطها دون أن أغلق النافذة أو أفتح جهاز التكييف ...

أفقتُ منه على طرقات الباب ...

تفضل ..

قلتها بصوت خافت

كان القادم (أمي)

دلفت الباب واستقرت على المقعد القريب من سريري ثم أخذت تتأملني مدة وكأنها تراني للمرة الأولى وتطيل تفحُّص ملامحي التي طالما حفظتها عن ظهر غيب ...

سألتها وأنا أرتب غطاء سريري :

ألن يكون هناك اجتماع عائلي للصباحية ؟؟؟

ردت بهدوء :

لا ... فقط سيكون هناك وليمة خاصة بالرجال وسيتولى محمد إحضار غداءنا إلى هنا ..

عادت صامتة ....

أقلقني صمتها وبدأتُ أهز رأسي لها بهدوء مستفهمة عما يحدث وثمة إحساس مخيف كان يراودني خلال حديثها المتقطع ونبرتها المترددة ...

لعله أبي عاد يهددك من جديد وأنت عاجزة عن مواجهته ؟؟؟

سألتها بإلحاح وأنا أضع يدي على كتفها ...

لم ترد ...

إذن مشكلة وقعت لعلياء ليلة زفافها الأولى ؟؟؟

أخبريني يا أمي فلا طاقة لي على الصبر ؟؟

أدارت وجهها تجاه الناحية الأخرى وتمتمت في هدوء :

طرق علي الباب رجل لم أعرف هويته ... وطلب مني سرعة إخلاء البيت لأنه أصبح مالكاً له بموجب عقد شراء بينه وبين والدك ...

فعلها الظالم ال.....

قلتها وأنا أحترقُ غيظاً فقاطعتني :

لا تسبي أباك أو تشتميه فهو معتاد على مثل هذا وفكري جيداً أين سنعيش ؟؟

صمتُ أسترجع قواي وألتقط أنفاسي كي أتحدث لكنها لم تمنحني وقتاً لأفكر وإنما قالت :

الحل بين يديك

بين يديّ أنا ؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟

ردتْ :

نعم يا ابنتي ... الحل موجود وقد يكون صعب عليك قبوله لكنه الوسيلة الوحيدة للخلاص من مصيبتنا وإتمام بقية حياتنا في هدوء واستقرار ..

قالتها وهي تبتلع ريقها بصعوبة فأفزعني كلامها حتى اقتربتُ منها متسائلة :

أمي لا تزيدي حيرتي وأخبريني ما الذي يجب عليّ أن أفعله ؟؟؟

صمتت لحظات ثم بدأت تتحدث باستقامة وقوة :

فكري يا ابنتي جيداً فيما سأقوله لك ولا تتعجلي القبول أو الرفض ...

لا تجبري نفسك على ما لا تطيق فلدينا إله عظيم سينتشلنا مما نحن فيه ..

الموضوع بصراحة يتعلق بخطبتك من رجل ثري قادر على منحنا سكناً خاصاً نعيش فيه إذا أصبحت زوجته ولكن المشكلة تكمن في قبولك به زوجاً ...

أحسستُ بخوف بدأ يخالج أنفاسي التي تسارعت دون إرادة مني فقلت لها :

وكيف أقبل الزواج منه وأنا لا أعلم عنه شيئاً ؟؟؟

أجيبيني يا أمي بسرعة ...

لا تكثري التمهيد والمماطلة في الرد فقد يكون رجلاً صالحاً ونفسي راضية به .

كنتُ أفكر حينها في زاهر وأتخيل انتماءه إلى بعض الصفات التي ذكرتها والدتي كالثراء لكنه عاجز عن منحنا السكن والحياة المرفهة ...

ثم أن عقد قرانه حسب ما علمت قد تمّ ؟؟؟

قطعتْ تفكيري بقولها :

هناك فارق كبير في العمر بينك وبينه

صرختُ مذعورة :

عجووز

تمتمت أمي في هدوء :

نعم عجوز ...لكنه قادر على الزواج وتبعاته من أسرة وأطفال ...

إنه جارنا أبو ياسين !!!!

أطرقتُ برأسي إلى الأرض وأنا أقاوم حشرجة اعترضت جوفي ليتعثر لساني عن الكلام وتتوقف رئتي عن الشهيق ...

كانت نهاية حديثنا شهقة طويلة واجهتُ والدتي بها حين نطقت باسمه وبعدها غادرتْ الغرفة صامتة بينما وضعتُ رأسي بين ركبتيّ وأخذت أجهش بالبكاء دون أن أحدد سبب بكائي :

هل هو خوف ...

ألم ...

مفاجأة ...

ذهول ...

هل يمكنني أن أتخيل نفسي زوجة له ...

هل أستطيع أن أتعايش مع شيخوخته وتردّي صحته ؟؟؟

كيف سأتأبط ذراعه وأسير إلى جانبه أمام الناس وهم يرمقون شبابي بنظرات الحسرة والأسى ...

كيف أستطيع أن أستبدل خيال زاهر وحضوره الطاغي في عقلي رغم غيابه الآن بتجاعيد وجه أبي ياسين وارتخاء عضلات صوته الذي أخفاه تقدّم السن ؟؟؟

وما الذي يجبرني على القبول به ؟؟

ما الذي يجبرني على الانتحار ؟؟؟

ثم أنه كيف تجرأ ليطلبني زوجة وأنا حفيدته التي تربّتْ في كنفه وعاشت طفولتها تشاغبه حين تطرق باب بيته مدة أو تدخل عليه بغتة وهو متكئ ينفث دخان سيجارته كي تطلبه ريالاً تشتري به الحلوى من البقّال ؟؟؟

كيف تجرأ وتخيلني زوجة تكشف له الآن سترها وتتيح له فرصة الاستمتاع بالنظر إلى محاسنها ؟؟؟

هل سمحت له نفسه الدنيئة أن يستغل عوزنا بمساومة رخيصة لا تساوي في حساب الإنسانية والرجولة شيئاً ؟؟؟...

هل يحق للعوز أن يبيعني له مقابل تأمين سكن لأسرتي وحياة مرفهة لأخوتي ؟؟؟؟؟؟؟

انتهت تساؤلاتي وتلاشى قلقي مع آخر حقيبة أوصدناها أنا وأمي للرحيل إلى منزل جدتي الذي تسيطر عليه زوجة خالي أحمد وقد علمت من خلال صمت أمي وكثرة تأففها أن والدتها رجتها الاستعانة بالجمعيات الخيرية كي توفر لنا سكناً آخر بسبب ضيق المكان وعدم كفايته ليضمّنا جميعاً ....

مضت علينا عدة أشهر تجرعنا فيها مرارة الألم وافترشنا قسوة الهم نتيجة المضايقات المتواصلة التي كنا نتعرضُ لها من زوجة خالي ..

الشرسة ...

الماكرة ...

الأنانية ...

الانتهازية ...

كانت تمارس سلطة التهكم وسياسة التحقير والإقصاء كي تنفرنا من البيت الذي أصبح ملكاً لها بموجب عقد شراء تنازلت فيه جدتي عنه لابنها الوحيد الذي يعولها على حد تعبيرها ...

وضعتُ حالتنا المزرية نصب عينيّ وأخذتُ أفكّر في غرفتنا الضيقة التي تعجز جدرانها الأربعة على أن تخبئ أبسط حاجياتنا ...

وقد أجبرتنا زوجة خالي على تناول الطعام فيها وعلى النوم فيها وعلى الاستذكار والصلاة والاجتماع الأسري فيها بحجة أن محمد ليس من محارمها وأنها لا تريده أن يزعجها في موضوع الحشمة والستر ...

كان ضيق الغرفة يدفع أمي إلى النوم عند مدخلها وقد ألزمها خالي بتسليم مرتبها الضئيل له نهاية كل شهر مقابل فواتير الكهرباء وقيمة الإقامة المجانية التي تعيرنا بها زوجته بين الحين والآخر ...

رأيتها يوماً تبكي بشدة لأن أسامة يريد بدلة للرياضة البدنية وهي عاجزة عن شرائها له ... ولم يتبقَّ من مكافأتي ما يكفي لسد حاجات إخوتي ...

ورأيتها تتذمر من هروب محمد المتكرر عن البقاء في هذا الجحر الضيق الذي نسكنه ...

ورأيتها تتمنى الموت على البقاء في حياة الذل والمهانة ...

ففاجأتها بقولي :

أمي إذا كان الرجل العجوز لا يزال ....

قاطعتني :

لا تقولي هذا الكلام على أبي ياسين فهو لم يجبرك على الزواج منه ولم يشعرني أنها فرصة قد يستغل فيها ضعفنا لكنه أخبرني بحقيقة حبه لك وتعلقه بك ورغبته في العيش بهناء وسعادة إلى جانبك وأقسم أنه سيرعاك ويدلّلك وينقل بعض أملاكه إلى ملكيتك لو قبلت أن تكوني زوجته.. وهو رجل متزن وطيب وجاد ومدرك لمتطلبات الحياة ...

وفي نظري :

هو أفضل من هؤلاء الشباب التافهين العاجزين عن إدراك حقيقة الزواج ومضامينه السامية

(قالت كلامها بقناعة وكأنها تقول :

وافقي دون تردد)

فأجبتها بعد أن نفرت من عيني دمعة تحدي قاومتها بضراوة :

أنا موافقة

.....

.....

نقلت لي أمي حجم الفرحة التي أصابته حين علم بأمر موافقتي وحتى يعبر عنها بوضوح أهدى لي أسورة ذهب نسي فاتورتها في الكيس وكانت قيمتها عشرة آلاف ريال ..

لم يكن شكل أبي ياسين يدل على الثراء ...رغم أنه سخيّ ومعطاء ولا ينقطع الخير من بين يديه ...

فسيارته الداتسون ذات الموديل القديم وثوبه الممتلئ بالأوساخ ولحيته البيضاء الغير منتظمة وضيق عينيه حين يدقق النظر في الأشياء دلالة على أنه مسكين ... متهالك ... يحتاج العون ممن حوله ....

فكانت مفاجأة مثير للذهول أن يكون هذا الرجل حاكماً على ملايين الريالات وغيرها من مبان مستأجرة في عدة مناطق من الأحساء ...

وافق على جميع شروطي بما فيها تأمين مسكن لأهلي بموجب عقد شراء أملكه وتأمين مسكن آخر لي في أحد الأحياء الجديدة التابعة للقرية بعيداً عن مسكنه القديم الذي كان آيلاً للسقوط بسبب قدم بنائه .

لا أعرف أي قوة حلّت بي ليلة العقد وكيف تجرأتُ وخيال زاهر حيّ أمامي لأقول :

(نعم)

قلتها أمام زاهر.. ..... وأمام أهله

وقلتها أمام أبي ...

وقلتها أمام خالي أحمد ، وزوجته ، وجدتي ...

وقلتها أمام مرام ...

أمام كل الوجوه المعتمة الراحلة (بلا هوية) بعد أن رأيتها تحتضر أمامي وتودع كل عرق يربطني بها ...

قلتها أمام المجتمع الساخط على الفقر...
وأمام الإدارة المتسلطة التي تعاني منها والدتي...
وأمام حق المرأة المسلوب لدى رجل ظالم طالما هاجم أمي قائلاً :
سأطلقك وأسلب أولادك حريتهم ليعيشوا خدماً بين يدي زوجتي ..
قلتُ : نعم
وهنا انتُزِعَتْ روحي كي تعرج إلى جدران مغلقة تجبرني أن أعود إلى أبي ياسين لأكون زوجةً له .
قررنا أن يكون الزواج خارج المنطقة بعيداً عن أنظار الناس وأعين الحاسدين كما قالت أمي وتزوجنا في (المدينة المنورة)
وكانت أقصى درجات التعذيب في الأيام الأولى من زواجي لأنني كنت أزدري هذا الشخص وأشعر بالاشمئزاز حين أحاول النظر إليه أو الاقتراب منه .
قد يكون طيب القلب وقد يكون رحيماً لكنه في حقيقة الأمر لعنة غيبية نزلت عليّ واجتررتها على نفسي لأهرب من عواء ذئاب بشرية كانت تنهش لحمي دون هوادة ...
حاولتُ أن أتقبل طريقته المزرية في تناول الطعام حين يتصبب المرق بين جوانب فمه أو يزيل بقايا اللحم العالق بين أسنانه بيده ...

أو حين لا يتورع عن التجشؤ في أي موقع نتناول فيه الطعام ، فأكتمُ أنفاسي وأهرعُ إلى الحمام كي أتقيأ ما ترفضه معدتي التي تعودت الجوع واستساغت قلة الأكل....

حاولتُ أن أتقبل نومه المفاجئ بعد ساعات المغرب وجلوسه المبكر بعد صلاة الفجر وكيف كان يجبرني بهدوء أن أشاطره وقت النوم ووقت الجلوس ..

حاولتُ أن أكون مثله أسمعُ المواويل العراقية القديمة لسعدون جابر وأضحك على كل الحكايات الماضية التي كان يحكيها لي عن فتوته وشبابه ورجولته ...

لم أنسَ غضبه العارم وزعيقه المفاجئ لي حين رآني أرتدي بنطالاً قصيراً وقميصاً فاقع اللون ...

فلم يكن هذا اللباس يرضي ذوقه وكان يجبرني على الثوب الفضفاض الطويل ذو الأكمام الطويلة لأنه الأجمل في نظره للمرأة والأكثر وقاراً لها ...

حاولتُ جادة أن أقنعه أنني شابة أحلمُ باللباس الأنيق الذي يتماشى مع الموضة كغيري من الفتيات ولكنه كان متعنتاً في رأيه .

حاولت مراراً ألا أزدريه وأجبرتُ نفسي أن تحبه لكنني فشلتُ بقوة ... وأصبحتُ أتلاشى عن الوجود في حضوره وأهرب إلى خيال يعينني على

البقاء إلى جانبه كدمية خشب يحركها الزمن كيف يشاء دون أن تعي شيئاً حولها .

كان مشهد عروقه الواضح في تفاصيل يديه وساعديه مقبولاً ...

وكان اختفاء الصف الأمامي من أسنانه أيضاً مقبولاً ...

وكان تحسسه الطويل للنقود التي يخرجها من محفظته كي يرميها إليّ مقبولا ..

لكن حياتي معه كزوجة تمنحه الود والحنان والحب غير مقبول ويكاد يكون معجزاً ....

فلم أتعود أن أمثل دوراً لا يليق بي أو لا يحسن لمثلي آداؤه ...

حتى الأموال التي كان يغمرني بها سرعان ما أعيد معظمها له وأخبئ القليل كي أقدمه لوالدتي عوناً لها على متطلبات الحياة التي أصبحت تجتازها بطريقة أكثر يسراً بعد عقد العمل الذي حصل عليه محمد من إحدى الشركات الكبرى ...

كان السكن الذي اختاره لي مريحاً وقد تعمدتُ إيقاف قيد الدراسة في الجامعة حتى أتخلص من لهاث نظرات صديقاتي لي ، وبحثهن الدائم عني وتهكمهن على حالي وبالذات مرام التي ترجمت ما حدث على أنه استغلال وبيع للأنوثة مقابل حفنة مال لا قيمة لها في الحياة ...

لم يكن يهمني كلامهم ولا رأيهم ولم ألتفت لحظة إلى موقفهم مني أو احتقارهم لي ...

كنتُ أخطط إلى أسلوب عودتي إلى الجامعة وإكمال تعليمي رغم تذمره مما سأفعله فقد كان مصراً على بقائي في البيت إلى جانبه لأنجب طفلاً أرعاه كي يمنحنا السعادة ...وكنتُ أضحك ساخرة مما يقول ..

فهل يحق لأمثال أبي ياسين التفكير في الإنجاب ؟؟؟

الأعمار بيد الله لكن :

هل سيمهله العمر فرصة رعاية الطفل وتعليمه حتى يكبر ويتزوج ؟؟؟

إنها المأساة التي توهمه أنه ما زال قادراً على التنعم بالمال وبذله دون إعداد لغد قد يفجعنا بما لم نتوقعه ...

كنتُ أقيمُ في دور أرضي واسع ومتكامل البناء والتجهيز بينما يقيم ابنه الأصغر سلمان في الطابق العلوي مع زوجته وطفليه الصغيرين وأذكر أن سلمان هذا يشاطرني عدد السنوات سوى أنني أفوقه الشهر أو الشهرين اللذين احتضنتُ فيهما الدنيا قبله ، لذا كان ساخطاً عليّ خلال أيام زواجي الأولى لكنه عاد يتحدث معي باقتضاب مرحِّباً أو مسلماً احتراماً لثورة والده التي واجهه بها حين علم بما يضمره تجاهي من سخط ..

كنتُ أخجل من النظر إليه وهو يتأمل ملامحي الشابة ويتذكر طفولتي البريئة واتزاني المعهود مقارناً إياها بلحظات غنج أو دلال أمثلها على والده كي أكسب منه ما أريد أو أحقق عن طريقه ما أتمنى ...

لذا أعيش مع أبي ياسين في عزلة لا أرى فيها أحد سوى والدتي وعلياء ومحمد وأسامة فأبناؤه غير راضين عني وغاضبين من البيت الذي أهداه لي خوفاً من استيلائي على الأكثر ...

كان الجو بارداً وكنتُ أغط في نوم عميق وأسمع صوتاً ضعيفاً يستنجدني ..

أفقتُ مذعورة لأراه ممدداً على الأرض يحتضر وعيناه تنظران إلى الأعلى وأثر لبقايا ريقه الذي كان يتدفق من فمه ، فما كان مني إلا أن أسعفته كالمعتاد بوضع قناع الأوكسجين على أنفه وتشغيل الجهاز الخاص به لأنها ليست المرة الأولى التي تباغته فيها نوبة الربو وهو نائم وبينما أنا ألاطفه وأخفف غضبه واستياءه من نومي الطويل الذي لم يرق له أبداً رن هاتفي المحمول وكانت أمي تتحدث بصوت متقطع بالنحيب ..

صرختُ بجنون :

أرجوك أخبريني ما حدث !!

فلم أسمع لها جواباً ففررتُ مسرعة إلى بيتها المجاور لي دون أن تستوقفني نداءاته ... وما أن وصلت حتى رأيتها ممدة على الأرض ... قد ازرق وجهها وابيضت شفتاها ... وتسمّرت عيناها كالميت تماماً ...

فـي المستشـفى علمـتُ أنهـا صـدمة عنيفـة أصـابتها جـراء تعـرض أخـي أسـامة لحـادث مـروري فظيـع أدخلـوه علـى أثـره غرفـة العنايـة المشـددة .....

(٨)

عبر أسامة الشارع المقابل عصراً بسرعة غريبة محاولاً اللحاق بأبي قبل أن يدير محرك سيارته بعد خروجه من شقة كان يستأجرها لزوجته هناك إلى أن يكتمل بناء البيت الذي صممه لها على أحدث طراز في البناء الحديث ...

لم يلتفت إلى السيارات التي كانت تعبر هذا الشارع بسرعة جنونية وكان خائفاً من مغادرة أبي المكان دون أن يلتقيه ...

فالتهمته العجلات قبل أن يخبئه حضن أبي .....

كان يحبه كثيراً ويكثر السؤال عنه وكان يحتفظ بصورته في جيبه ويريها كل من حوله من الأولاد ليثبت لهم أن له أب ..

أسامة الآن يحيا غيبوبة مخيفة قد لا يكون هناك أمل في شفائه منها ولو شفي فسيعيش معاقا طيلة حياته ...

دخلنا غرفة العناية المشددة وكان الجو معتدل البرودة والمكان هادئاً إلا من بعض الشهقات التي تظهر فجأة من فم والدتي وسرعان ما تختفي حين تشيح بوجهها ناحية الباب الخارجي لتمسح دموعها الهادرة بغطاء وجهها الثقيل ...

أما أبي فقد كان واجماً لا ينطق وكان يكتفي بالنظر إليه وتكفيف دموع أذهلتنا جميعاً ...

فهل حقاً يعرف أبي شيئاً اسمه البكاء ؟؟ ....

هل حقاً يشعر أبي ؟؟؟

هل لديه قدرة على أن يمارس دور الأبوة ويتيح لأحاسيسه الفرصة أن تحرك الدم الساكن في عروقه طوال سنين مضت ولم نشعر به أباً ؟؟؟

نحن نتعامل معه كمؤجر للبيت .. يتقاضى منا قوتنا ليقتات به ..

وأحياناً نتعامل معه كوحش بشري ؟؟؟

وأحياناً كظالم مستبد كتب الله في لوحنا أن نسميه

" أب "

بكى أبي للمرة الأولى وتساقطت دموعه على اللحاف الأبيض الذي كان يغطي جسد طفولة وبراءة ظلّلت حياتنا بالحب وأشعلت مستقبلنا بالأمل ..

لم يقصد أسامة إيذاء أحد ... فقط كان مشتاقاً كي يقول :

بابا ...

كان يعجز عن قولها لأبي ياسين وكان يكرهه حين يمثل أمامه دور الأب ...

ودائماً يقول :

أبي أجمل من أبي ياسين وثيابه أنظف ..

فتسرع أمي إليه لتخطفه من المكان وتنأى به إلى إحدى زوايا الصالة معاتبة ومؤنبة :

لا تقل هكذا أمام زوج أختك ... فهو يحبنا كثيراً ... تأدب في الحديث معه وناده " عمّ "

ولم يكن صمته سوى أبسط تعبير عن رفضه وعدم قناعته بما تقول رغم ضخامة المبلغ الذي كان أبو ياسين يدسه دوما بين يديه واعداً إياه بالمزيد لو تقدّم في دراسته ...

أسامة هو الوحيد الذي كان يتجرأ على الوقوف أمام أبي وهو يزمجر ويهدد مكتفياً بالنظر إليه وبمجرد أن يتم تهديداته يمد يده الصغيرة إليه قائلاً :

أريد ريالاً ...

ولأن بعضاً من إنسانية أبي تستيقظ أمام هذا الموقف فإنه يصرخ في وجهي قائلاً :

أبعديه عني ...

كنتُ أجدُ صعوبة في إبعاده لأنه يصر على موقفه ويتعمد الوقوف منتصباً دون أن يخيفه الصوت العالي أو ترعبه النظرة الغاضبة ...

أذكرُ أنه حين كان في الصف الأول الابتدائي استدعى معلمه أبي ورفض الحضور فأرسلت أمي أبا ياسين وفاجأه المرشد الطلابي بسؤال :

هل هذا الطفل فاقد للأسرة ؟؟

تساءل أبو ياسين عن السبب فأجابه المرشد :

ابنكم يرسم بيتاً وأسرة ولا يكف خياله عن نسج هذه الصورة حتى عندما يغير معلمه الموضوع ويجبره على رسم مقرر المنهج ، تجده يعود ليرسم بيتاً وأشجاراً ورجلاً ضخماً يقف أمام البيت ...

وحين نسأله :

لم يقف هذا الرجل هنا ؟

يجيب ببراءته :

إنه أبي الذي يحرس البيت من الأشرار ؟؟

عجيب أسامة في صياغة شخصية هذا الأب الميت ..

مرة يراه حارساً ومرة يراه عملاقاً ومرة مارداً يحقق الأمنيات ومرة يراه أباً مهمته الرعاية والاحتضان ...

لم يكره أبي أبدا ...

لم يسمح له نقاؤه باختزال الحقد أو تضميد جرح الفقد بمرارة الحرمان ... كان ينتظر مجيئه كل يوم ويخبئ دفاتره وعلامات تفوقه كي يريها إياه ظناً منه أنه سيكافئه عليها باصطحابه إلى أي مكان يكون فيه قريباً منه .

احتفلت أمي به يوم ميلاده الذي صادف يوم نجاحه من الصف الأول الابتدائي واشترينا له كل الهدايا التي كان يحلم بها ...

" سيارة الكترونية " تعمل بجهاز تحكم خاص .. اشتريتُها له

طائرة ورقية .. اشترتها علياء

جهاز ألعاب الكتروني ... اشتراه محمد
ودفتر الرسم الذي يعشقه الفنان الصغير..
واشترت له أمي الكعكة المثلجة التي وقع اختياره عليها بعد عناء فرفض أن نأكل منها واختبأ مدة في المطبخ حتى ظننا أنه يريد أن يقسّم الكمية التي سيسمح لنا بتناولها لكنه فاجأنا حين خرج يحمل طبقاً بلاستيكياً وضع فيه أكبر قطعة من الكعك واحتفظ بها في الثلاجة (لأبي)
وبقيت الكعكة ما يقارب الشهر حتى يبست وأصابها العفن لأن جميع توسلات أمي بمحمد كي يأخذها إليه باءت بالفشل ...
فكل من في البيت يكرهه عدا أمي التي كانت لا تزال تنتظر عودته إليها من جديد ...
في آخر يوم :
عاد أسامة من المدرسة بعد أن درس موضوع القراءة :
" أمي وأبي "
وكان يعدد يومها على أصابعه ماذا فعل الأب لنا وكيف يجب أن نعامله ..
ولأنه أتقن القراءة واستذكر دروسه بنجاح كافأته أمي بريالين يشتري بهما الشوكولاتة التي يحبها من بقالة الحي ...
فكان تفوقه طريقاً إلى حتفه ...

شهق أسامة شهقات متتالية ظننا فيها أنه يود الاستفراغ فأسندنا ظهره إلى الوسادة وهرعت الممرضات إلى سريره بعدما أبعدونا عنه ...

رأيتُ عدداً من الأطباء يحيطونه ولم أعِ بعدها شيئاً سوى أنني صحوت من إغفاءة طويلة وجدتُ نفسي فيها ممدة في صالة شقتنا التي كانت تضج بالنساء وهن يحطن والدتي خوفاً من أن تصل إلى مرحلة الجنون وهي تصرخ منادية :

أساااااااااااامة

تعال كي تتناول عشاءك ثم تتهيأ للنوم ...

وحين جنّ الليل وسكن الصياح والزعيق الذي كان يملأ الأرجاء رأينا شبحاً عملاقاً يقف في صالة الشقة التي كنا نسكنها وحين تفحصناه وجدناه أبي !!!

فما الذي جاء به ؟؟؟

لعله جاء كي يستولي على ما لدى أسامة من ريالات جمعها في صندوق خشبي كي يشتري بها هدية لأمي في عيد الأم ؟؟

أو لعله هنا للاطلاع على وضع الشقة وما نحن فيه من خير بفضل زواجي من أبي ياسين وإغداقه المال علينا ؟؟؟

لا ...

يبدو أن أبي جاء هنا من أجل التعزية ...

فهو صامت وبعد ساعتين من الصمت أخذ يصرخ وينحب ويلطم على رأسه حتى أرعبنا الموقف واضطررنا للاستنجاد بسلمان كي يحاول إسكاته ...

لم نجبه حين رجانا أن ينام في غرفة أسامة ليلتها وتخيلنا أن عاطفته بدأت تخالج دموعه التي لم تتوقف لحظة عن الهطول ...

اضطررتُ للمبيت إلى جانب أمي ورعايتها لأنها كانت تعيش حالات متقطعة من الإغماء القسري واستمرتْ في وضعها المأساوي عدة شهور عجز خلالها الأطباء عن تقديم العلاج الأمثل الذي يخفف عليها وطأة المصاب وفداحة الخطب ...

أما أبي فقد استمر يزورونا عدة مرات في اليوم مكتفياً بالمكوث في غرفته والنظر إلى ملابسه وألعابه وحاجياته ..

حتى جمع كل الصور التي التقطناها له منذ ولادته واحتفظ بها في درج خاص وأخذ يعيد النظر إليها كل يوم ...

كان يعيش هاجس الأبوة دون ابن ويعيد ترتيب حاجياته بدقة وكأنه يجلس إلى جانبه ويشاطره الرأي في وضعها حيث يحب ... ولعل أبي أدرك حقيقة ما فعله بنا وأدرك حجم قسوته وتداعيات ظلمه ..

لم يعبأ بتعالي زوجته عليه وخصومتها الشديدة له رغم حبه الشديد لها وتعلقه بها ...

لم يكترث إلى عتاب أولاده له بسبب غيابه الطويل عنهم ...

فأمر مثير للذهول أن تتصل به عدة مرات ولا يرد عليها ؟؟
وأمر غريب أن تهدده بإغلاق باب البيت في وجهه ولا ينتفض ذعراً منها كما كان يفعل سابقاً ..
والمفاجأة الأكثر غرابه هو العرض الذي قدمه مؤخراً لوالدتي بالسفر معها إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة رغبة في أداء العمرة ..
لكنها لم تكن سعيدة به ولم تتقبل فكرة النظر إليه أو حتى التحدث معه ... كانت تطالعه باحتقار وتدير وجهها عنه ثم تغادر المكان بصمت وكأنها تهزأ بهذه اللحظات التي عاد فيها إلى بيت أطفأته السنوات بوجهه المعتم .
عدتُ إلى البيت متعبة بعد موعد طبي انتظرتُ فيه طبيبة النساء فترة طويلة من الزمن وبعد الكشف أخبرتني أن وضع الجنين بخير ثم أوصتني الالتزام بالراحة ..
رن جرس الباب فتثاقلتُ عن استطلاع القادم وطلبتُ من العاملة عدم مناداتي والاكتفاء بالاعتذار نيابة عني ...
لكنها عادت مرة أخرى تصرّ عليَّ الخروج لأن القادمة على حد تعبيرها :
(صديق مدام)
واتسعت دهشتي لتتناسى كل التعب أمام دموع مرام التي احتضنتني بحميمة افتقدتها منها أكثر من عامين مضا على انقطاع علاقتنا ...

كانت تطالعني بحسرة وتتأوه على حالي بأسف وظلت ممسكة يدي طوال وقت جلوسنا ومصرة على مواجهة نظراتي حتى النافر منها ...

لم تكف عن تحريك عينيها حول الأثاث الذي كان يحيط الغرفة وروعة الهندسة التي كانت تزين جدرانها ...

كان كلامها مقتضباً في كل شيء وترجمت غيابها الطويل عني بمبررات سريعة واعدة إياي بعدة زيارات تطيب فيها النفوس بيننا ...

ودعتني بحرارة وقبل أن تغادر المكان وضعت على طاولتي ورقة دونت فيها هاتفها وعنوان شقتها بعد زواجها من قريبها الذي أحبته ...

خرجت تجر خلفها رائحته ؟؟؟

رائحة الحب التي طالما طاردتني في يقظتي ومنامي ولحظات رحيلي إليه في زمن لا أطيق البقاء فيه ....

بقيتُ صامتة ووقع أقدام يحدثني عن قادم مجهول لا أظنه أبا ياسين الذي أضحى عاجزاً عن الحركة...

ففاجأني القدر في اليوم نفسه بقادم غير متوقع لما بيننا من عداوة ..

إنه سلمان ابنه الأصغر ؟؟؟

تزوجتُ والده فأظهر لي العداوة وكان كثيراً ما يعترض على أي خطوة يغمرني فيها والده بالمال ...

كان متردداً في خطواته .. خجلاً من كل ما أضمره ماضيه لي من شتائم وقذف ...

لكن بطء خطواته وانخفاض رأسه حياء مني أخذ يجرني إلى زاوية في ذاكرة الماضي طالما رجاني فيها أبو ياسين الاستذكار له ..

ولم أعتقد للحظة أن سلمان كان يدعي البلادة ويمثل دور صعوبة الفهم كي يطول شرح الرياضيات له عبر الهاتف وتمتد مدة توضيح رموز الفيزياء له بكم هائل من الكلمات وسيل متدفق من التعابير ..

وبعد زواجي حاربني بنظراته وطاردني بتلميحاته القاسية ...

إلا أن جلوسه الليالي السابقة إلى جانبي وطبيعة الأحاديث التي دارت بيننا كشفت لي الكثير من الغموض الذي كان يحيط شخصيته المعقدة ...

بدا يحترمني كثيراً ...

ويبدي إعجابه الشديد بذكائي وحكمتي في الردّ ...

كان يلوم حظي الذي زجّني للزواج من والده مشيراً إلى أن الحياة بإمكانها أن تمنحني زوجاً شاباً يليق بي ...

فهو حزين من أجلي ومن أجل كل ما يحدث لي الآن ..

شعرتُ بارتياح شديد وأحسستُ أن هناك أخ بعثه الله لي إلى جانب محمد معيناً وسنداً ووطنا للشهامة والنبل...

مضت الأيام ، وكان يفضل تناول شاي ما بعد الغداء في بيتنا ويتأهب لتقديم أي عون لي أو لأهلي تضامناً مع المصيبة التي أنزلها الله بنا ..

فاحترمته كثيراً وأصبحتُ أستعين به في مهمات شتى يعجز والده عن تلبيتها لي ...

استقبلته بحفاوة كالعادة وحين ناديت العاملة كي تقدم له الضيافة لم ترد عليّ فأردتُ إحضارها له من المطبخ لكنه رفض بشدة ...

جلس على المقعد الموازي لمقعدي وأخذ يتأملني في حنان لم أعهده مسبقاً ولم أكن قادرة حينها على ترجمة تداعياته ...

وسرعان ما امتدت يداه على كتفي فأدركتُ أنها نظرات مكر وباغتني الحدث لأصرخ في وجهه مذعورة :

ماذا تفعل ؟

هل جننت ؟؟؟

تأوه ساخطاً على حاله ثم قال :

الجنون هو سماحي لهذا العجوز أن يتزوجك وأنا أحبك

صرختُ بقوة لا أعرف من أين استعنتُ بها :

سلمان أنت معتوه ... فاقد للغيرة ...

كيف تقبل على نفسك أن تقول لزوجة أبيك التي هي بمقام ...

قاطعني :

بمقام من ؟

أمي ؟؟؟

جدتي ؟

أم أختي الكبرى !!
أنت لا تزالين جمالاً يسكن هذا البيت ويستولي بأنوثته على كل أركانه ... أنت امرأة طاغية الفتنة ... قوية الحضور ولا حق لأبي أن يسجنك في غياهب أوجاعه ...
فليدعكِ لي ....
لأنه من حقك العيش كباقي النساء ..
من حقك الحياة الحرة ..
من حقك رجل يحاور أنوثتك كل يوم ويسجل إعجابه بها ... ويستمر في وصف محاسنك والتمتع بالنظر إليك و .....
اتسعت حدقتاي ولم أصدق ما أرى ...
لم أتصور أنه كان يخطط لنهايتي ...
أو يتربص بي الدوائر ؟؟؟
أو يحيك لشرفي المكائد !!
أنا من محارمه ؟؟
وواجبه حمايتي والذود عن عفتي لا محاولة افتراس طهارتي !!!
لا لا لا لا يمكن أن يحدث هذا .....
أظنه حلم مزعج ...وكي أتحقق مما أرى صفعته عدة صفعات على وجهه وأبعدتُ يديه بشراسة عني وأنا أصرخ :
اتركني وإلا فضحتك أمام الملأ وتركتهم يقتلونك ...

طالعني بجنون مبتسماً :

ما أجمله من موت ..

نسيت إخبارك أن عاملتك ذهبت لمساعدة زوجتي في شأن كلفتها به ...

أنا أحمل بين أحشائي طفلا لا تدع للشيطان فرصة كي يقتل انتماءك له ....

قلتها وأنا أتراجعُ إلى الخلف ...

فبادر بتكميم فمي ومحاولة سحبي بالقوة إلى الداخل ....

شعرتُ بقوة فولاذية عجيبة ملأت جسدي نشاطاً خلاف ذلك الوهن الذي كان يدك عظامي ... وقاومته حتى وصلتُ إلى الباب الخارجي وانتهى صراعي معه وصراخي الذي ملأ الأرجاء بأن دفعني من أعلى السلم إلى أسفله وسمعتُ يومها تهشّم عظامي لكنني كنتُ سعيدة بالموت مقابل البقاء عفيفة لا تدنس قذارته شرفي ...

انهال عليّ ضرباً بيده وركلاً بقدميه وكان آخر وجه رأيته أمامي هو وجهُ أبي ياسين الذي كان يرجوه الكف عن ضربي بينما يصرخ هو مزمجراً :

إنها امرأة ساقطة تستحق الموت .....

(٩)

كانوا يحيطون بي ... يحاولون إيقاظي بشتى الطرق ... كادوا يحطمون عظامي وهم ينعشون قلبي الذي توقف لدقائق كما سمعتهم يتمتمون ... هم لا يعرفون حجم انتمائي لهذه الرقدة واتساع رغبتي للبقاء فيها مدة أطول ... فلم أعد أحلم بالبقاء ولم تعد حكاية الموت مصدر رعب يطرز وجهي عرقاً أو يثير تمسكي بالحياة ...

أنا متمسكة بالموت وممتنة له لو أمر الله ملكه أن يقبض روحي كي تعرج إلى مستقر لا تعب فيه ولا كمد ...

أعرف أنني لو فتحتُ عيني ستنهلل وجوههم فرحاً وسيتقاسمون نبأ فوزهم بعودتي إلى الحياة وخلاصي من الموت ...

أعرف أنهم حريصون على بقائي وأن مهمتهم إقناعي بالعودة إلى الحياة...

هم لا يعرفون كيف وصلتُ إلى هنا وحتى لو علموا لن يحرك ما بي مشاعرهم بالقبول أو الرفض ولن تثير بأسائي شفقتهم...

كم كان مزعجاً نحيب أمي في الخارج وكم كان مثيراً للدهشة وقوف أبي متسمراً في مكانه على مقربة مني ...

كان يريد لمسي فمنعوه بقولهم :

لا تزال في غيبوبتها ...

كان جفناي ثقيلين للغاية ولم يكن لديهما الشجاعة كي يرتفعا بحثاً عن بصيص النور الذي كان يحتضر في تلك الغرفة المعتمة ...

هناك يضعونني على سرير يستجدي الموت أن يختطفني منه كي تحل محلي أجساد أخرى تستعد للموت ...

كلهم مسنون إلا أنا ...

الشابة الوحيدة التي تملأ سريرها عطراً ...

كانوا يتحدثون عني بأسف ..

كيف أبقى ندية هكذا إلى أن يختطفني الموت وكيف استسلمتُ للكدمات القاسية التي هوى بها بقوة الشهوة وشدة جموحها على رأسي حتى أفقدتني صوابي واغتالت نبض جنيني الذي رحل عن الدنيا مودعاً كل الترهات التي واجهها معي ...

رحل ليطوي ذكرى أب عاجله الحدث بجلطة دماغية أصابته بالشلل وأقعدته وحيداً في بيته ينتظر رعاية أولاده ...

بقيتُ مغمضة العينين راحلة في ذكريات استوقفني فيها وهو يتأملني بدقة ويحاول استقراء كل مواطن الأنوثة في قوامي رغم أنني أتعمد لبس الفضفاض من الثياب ولف الشال الذي كان يخفي انسياب شعري ...

فاجأني ذات يوم برغبته في إزالة شيء ما علق بشالي وظهر شعري مسترسلاً بين يديه فقبض عليه بطريقة جعلتني أنفر وهو يقول :

أنا من محارمك الذين يحق لهم رؤية شعرك ....

صرختُ ممازحة إياه بحدة :

افعل هذا مع زوجتك يا سلمان ودع خصلاتي لزوجي ...

ظنني واحدة من صويحباته اللاتي تبيع الواحدة منهن عفتها بحثاً عن إشباع رغبة حقيرة تغريها بها نفسها الأمارة بالسوء ، أنا لا أنكر أنني أتأثر بالكلام العاطفي ويجذبني الكلام الجميل إلى درجة قد يقودني فيها إلى الإنصات الغير واعي له ... لكنها لحظات قصيرة ماضية مرت عليّ مع رجل أحببته بصدق وتمنيته زوجاً لي بشرع الله وليس مع شاب دنيء تسول له نفسه ممارسة المنكر مع امرأة حرمها الله عليه ..

لم أكن أدرك أنه كان يتحين بي الفرص وأنه كان يخطط لجريمة بشعة سيرتكبها في حق أسرته بمن فيهم والده ...

ولم أكن أتخيل أنه سينتزع شعوره تجاهي بالاحترام لتحل محله الغواية والرذيلة فقد كنتُ أراه شاباً هادئاً ... خجولاً ..... سريع التأثر ، تستنهضه الكلمة وتجره المروءة وتؤثر فيه الأخوة برباطها المقدس المنسوج بالرحمة والنقاء ...

بقي الأخوة الخمسة يترددون على المستشفى كي يطمئنوا على حالتي خوفاً على مصير أخيهم الذي أسرته جدران السجن إلى أجل غير معلوم ...

لم يكن يهمني أحد منهم ... فقط كنتُ أتحسس أعضائي كي أتأكد أنني لم أفقد شيئاً منها وكنت أطيل النظر إلى ما حولي من أجهزة لأتيقن

تماماً أنني أحيا واقعا حقيقياً لا حلما نسجه لي خيالي طوال هذه المدة التي مرّ عليّ فيها شريط ذكرياتي مروراً بطيئاً مرصوداً بدقة حكيتُ فيها ما أراه دون تحفظ أو خوف ...

بعد عدة أيام وجدتُ نفسي مرغمة على فتح عينيّ وتحركيهما كبوصلة يعبث بها صاحبها على حين غرة فتجوب بسهمها كل الاتجاهات ولا تجد فرصة للاستقرار في مكان واحد ...

كنتُ عاجزة عن تحديد لحظة توقفي .... لكن كلمات الطبيب وعباراته التشجيعية أجبرتني على إيقاف نظري وتحديد تجاه واحد أراه يكلمني فيه بهدوء طالباً مني الارتخاء وعدم الخوف وتعميق الشعور بالأمان في حسي ...

نظر إلي أبي مبتسماً وحاول الاقتراب مني فمنعه الطبيب لأن روحي نافرة منه ... ولا أعرف لم راودني نفس الشعور تجاه أمي ؟؟؟

لم أنا ناقمة عليها ؟؟

... رغم عدم تدخلها في حياتي ؟؟؟

لعلي ألقي بعض العبء عليها وأراها الأولى التي تقبلت زواجي من هذا الهرم ...

والأولى التي جنت علي بزواجها من أبي رغم علمها المسبق به وبمزاجيته وتقلباته ...

وأنجبتني وإخوتي إلى الدنيا دون أن تتعهدنا بالرعاية التي يحلم بها كل فرد في هذا الوطن المترامي الأرجاء ...

كل ما استطاعته هو أن تعمل " مستخدمة " تكنس مرافق المدرسة وتنظف أوساخ الطالبات داخل الفصول ودورات المياه وكان بإمكانها أن تتعلم وتتثقف وتكون أما واعية ... منتجة ... ذات مركز مرموق ومقام اجتماعي رفيع وشخصية قوية صلبة تواجه عثرات الحياة بكل قوة ...

فأمي ليست

أم مرام ..

ولا مديرة المدرسة ..

ولا خالة زاهر ..

ولا زوجة خالي احمد ..

ولا طبيبة الحي ...

أمي أم محمد

ذات الملفع الأسود الممتلئ ثقوباً والذي تغير لونه بسبب وقوع بعض قطرات المبيّض عليه

أمي ضعيفة ...

عاجزة ....

هشة ....

استقطبت أبي لأنه أشفق عليها وعاد إلى هنا كي يشفق عليّ أنا أيضاً .....

زجتني بهدوء كي أتزوج أبا ياسين وأضمن لها بيتاً تعيش فيه بقية حياتها دون أن يهددها أبي بالتشرد ...

ولدي يقين جازم أن أبي لو عاد حينها واحتال عليها كي يستولي على ملكية هذا البيت لأعطته إياه وأجبرتني على الإذعان له والالتفاف تحت جناحه الأسود كوجهه تماماً ....

صرختُ في وجوههم المطاطية الفاقدة الهوية :

أخرجوا .....

لا أريد أن أراكم .... فأنا أحتقركم جميعاً .

خرجوا ورمقتهم حتى آخر لحظة بازدراء ...

بعد أسبوع حرر الطبيب لي أمر الخروج وكنتُ أرفضُ كل الوجوه التي كانت تتجمع خلسة كي تراني ... طلبتُ من محمد أن ينقـــلني إلى بيتي (بيت أبي ياسين) الذي طالما كرهته وشتمته وهربتُ منه ...

سأعود الآن إليه بعد أن اكتشفتُ أنه الوجه الوحيد الذي أضاء عتمتي وحاول انتشالي من براثن ضياع أوشك أن يحل بي ...

البيت خال تماماً إلا من العاملة التي كانت تدندن في هدوء وهي تطهو طعام العشاء ... قبّلت يديّ وأجلستني على مقعدي الهزاز وبقيتْ صامتة تفكر أمام سؤالي لها عن أحوال خطيبها الذي يكافح ليتزوجها...

كنتُ متلهفة للاستماع إلى قصة الحب التي نشأت بينهما منذ الطفولة وأسباب مجيئها كي تضمن لحياتهما الهناء والدعة ...

تمتمتُ بهدوء :

أغبطك يا سوريتا

ليتني عشتُ حياتك وواجهتُ مصيرك ...

بقيتُ في بيتي عدة أيام وأوصيت سوريتا ألا تستقبل أحد فأنا امرأة قادرة على رعاية نفسي وحمايتها بعد أن مات كل الحماة في حياتي لكن إلحاح ياسين الابن الأكبر لزوجي دفعها لمناداتي وهي ترتعد غيظاً من سيل الشتائم التي ألحقها بها وقد تفاهمتُ معه على تفاصيل طلاقي من بهدوء مقابل تقديم تنازل عن الاعتداء الواقع علي ...

وأشار ياسين قبل أن يخرج إلى أن هذا البيت أصبح ملكي بمفردي ولي الحرية في إتمام حياتي كما أحب ...

لم أكترث إلى توصياته الأخيرة وتوسلاته بي أن يبقى ما حدث لي سراً بيننا خوفاً من تشويه سمعة رجل ...

إنه كلام يثير سخريتي و يشعل روح التحدي في خلاياي ... فأنا قادرة الآن أن أتحكم في نهاية رجل قادته شهوته إلى الهلاك ...

قادرة للمرة الأولى أن أهزم قوامة سلمان أمام جميع سكان القرية ...

وأسحق فتوته ...

وأدهس عنفوان ....

ال

ر ... ج ... و.... ل .... ة في عروقه ..

لكنني لا أريد أن أفعلها فمنظر أولاده وهم ينادونه ومن خلفهم دموع أمهم المنهارة يخيفني ويجرني إلى منظر أمي البائس وأبي يتأبط يد منال ويجوب بها شوارع القرية متباهيا بها أمام جموع الرجال ...

طرَقتْ بابي بهدوء فناديتها :

لا تدخلي أنا متعبة

لكنها عادت وطرقته مرة أخرى فتنهدتُ بعمق وقلتُ لها ادخلي ....

مرام!!!!!!!!!!!

لم أنت هنا ؟؟؟

سألتها وكل عناقيد الدهشة تسكنني فأجابت :

صدقيني ...

ما يحدث لك لا يرضيني أبداً ..

بقيت واقفة تذرف سيلاً من الدموع بينما أنا جالسة على سريري وعاجزة عن الوقوف من أجل احتضانها أو حتى السلام عليها ...

لم أقل لها تعالي كما عودتها ...

لم أبتسم ..

ولم أحطها بنظرات الشوق التي اعتادتها وإنما اكتفيتُ بالبقاء في مكاني والتزام الصمت حتى هوت عليّ تحتضنني وتستدر العاتي من دمعي ...

كان انهيارا غريباً لم أتوقعه ...

فكل الوجوه عجزت عن احتوائي إلا وجهها ...

(١٠)

خرجتُ صباحاً إلى أحد المستشفيات ... وفي القاعة المخصصة لطالبات قسم التمريض ملأتُ مقعدي وتنفست الصعداء بعد ازدحام مخيف كانت الشوارع تستغيث منه نتيجة إغلاق بعض الطرق استعداداً لترميمها ومدّ فروع لبعضها وإصلاحها مع بناء جسور تخفف من حوادث المرور وتتيح للمشاة فرصة العبور الآمن بجهد يبذله مدير بلدية المحافظة ..

كنا نتهامس أنا ورؤى حول هوية الدكتور الذي سيطبق لنا المادة ومدى جدارته في تقديمها .. وقد ألحت عليّ يومها مصاحبتها إلى أحد المقاهي المشهورة في مدينة الهفوف بعد خروجنا من القاعة وهو طلب تكرر اعتذاري منه مراراً لأن أهلي يرون عاراً يلاحقني في الوجود

اسمه " مطلقة "

ولهذا الاسم تداعيات وحيثيات وتقاليد ...

هم يخبئون هذا العار وما يلحقه من تساؤلات المجتمع بما فيها نظرات الرجال وذعر النساء بحبسي داخل جدران غرفتي التي أقبع فيها وحيدة طوال اليوم إلى أن يحين وقت خروجي للكلية ولقائي برؤى ...

وكنتُ كلما اشتقتُ لرؤيتها أجبرتُ نفسي على الاعتقاد بأن علاقتي بها آنية وأنها سرعان ما ستتلاشى بانتهاء آخر فصل دراسي ، وأنه لا حب قد يربطني بها ولا هوية صداقة قد تتيح لي فرصة الانتماء إليها ...

فجرح " مرام " لا زال يقرح جفنيّ ويحفر في ذاكرتي مقبرة ثوى فيها جثمان آخر إحساس بالحب وأوضح هوية بالانتماء ....

لحظات بعدها أعلن الدكتور ياسر بدء المحاضرة وألزم الجميع بإغلاق هواتفهم النقالة ثم استرسل في تعريف الوحدة الطبية التي سندرسها وكيفية استيعاب كم المعلومات التي تعرضها وبينما كنتُ منهمكة في كتابة ما يقول أرعبني صوت النغمة التي أخذت ترن بالقرب مني وبدأتْ رؤى تفتش حقيبتها وهي محرجة من كل الوجوه التي دققت النظر إليها ، حينها توقف الدكتور عن الكلام حتى أدرك أنه ليس جهازها إنما كان صوتاً صادراً من جهازي الذي نسيتُ إغلاقه ...

طلب مني الخروج من المحاضرة بنبرة غاضبة ولم تنفعني توسلاتي التي تزاحمت في صوتي والتي انتهت بدموع أغمضتُ عينيّ خلالها ورحلتُ إلى ماضيّ المؤلم حين يكون حاضراً لدى أي موقف متسلط أو ظالم أعيشه في حياتي ...

خرجتُ منحنية الظهر ... خجلة يتبعني إحساس بالإحباط ....

أخذتُ أجوب أروقة القسم دون أن أعرف إلى أين سأذهب وبمن أود أن ألتقي حتى وجدت متنفساً في إحدى الزوايا التي خلت من المرضى ....

وبعد صمت طويل ورحيل مثير للأسى رفعتُ رأسي لأحتسي بعضاً من القهوة الساخنة كنتُ قد اشتريتها للتو ...

وفوجئتُ به من بعيد ...

كان يتحدث إلى فتاة ترافقه قرب إحدى العيادات .... هل هو حقاً ؟؟؟

أم أن أوجاعي تجاوزت واقعي ثم رحلت بي إلى عالم الخيال ؟؟؟

هل ما زال حيا ؟؟؟

وما الذي جاء به إلى هذا المكان ؟ هل هو هنا للعلاج ؟؟؟

مازال محتفظاً بشموخه وقوته وشبابه الغض ...

ما زال محتفظاً بابتسامته الهادئة وتقاسيمه الخجولة ....

يبدو هنا من لباسه أنه طبيب ... ويبدو مهماً أيضاً ...

نهضتُ من مكاني وكنتُ أرتجفُ ذعراً ولا أدري لمَ لازمني تسارع عجيب في نبضي وباغتني غثيان مفاجئ لم أتمالك فيه قواي فأحسستُ بفقد توازني ولم أعد أسيطر على حواسي إلى أن شعرتُ براحة غريبة انتهت بصوت رؤى تبكي بالقرب مني ...

فتحتُ عينيّ مذهولة وأدركتُ بعد استرجاع للماضي أن إحداهن أسندتني إلى كتفها بين أصوات كانت تصرخ وأخرى تطلب الإنقاذ حتى وصلتُ إلى هذا السرير بسبب إغماءة أصابتني واستمرتْ أكثر من ربع ساعة ...

حدث كل هذا دون سابق إنذار !!!

لم يكن الأمر مهماً بالنسبة لي ولكنني كنتُ خائفة من أمر واحد فقط وهو اكتشافه لوجودي هنا أو علمه بمصيري بعد الطلاق وما أعقبه من إتمام لدراستي الجامعية ..

لا أحد يمكنه الإجابة على تساؤلي ولا قدرة لي على معرفة حقيقة ما حدث ومدى اطلاعه على الأمر لأن هذا مؤرق بالنسبة لي وسبب للمساس بجرح غائر يكاد يفتك بحياتي ...

دخلت أمي العيادة وهي تنتفض ذعراً وضمتني إلى صدرها وما أن هدأ روعها برؤيتي حتى قرر لي الطبيب حق الخروج مع عائلتي وأوعز لهم سبب ما حدث لي أنه كبت نفسي نتيجة عنجهية الأستاذ الذي طردني من القاعة مقابل ذنب لم أتعمد ارتكابه فتوعّد أبي بتقديم الشكوى ضده ..

خرجتُ أسير بخطى متباعدة تشدني إلى الخلف كي ألتفتَ دون وعي ثم أقف لأعيد النظر إلى مبنى المستشفى الذي كان غارقاً بأنين المرضى وأوجاع المصابين ...

فهل كنتُ حقاً أطالعُ المبنى ؟؟؟

إنني أتلقى الدروس العملية فيه منذ أكثر من ثلاثة أشهر وقد حفظتُ كل مداخله وأروقته ولم أعد بحاجة إلى التدقيق في تفاصيله !!

فلم كل هذا التراجع ؟؟؟

لم كلّ هذا البطء ؟؟؟

كانت تساؤلاتي أقوى مني وأكثر تسلطاً على ذهني :

هل تزوج ؟

وهل أنجب ؟

وهل هو سعيد مع من اختارها وآمنت أمه بها ؟؟

وما شأني أنا به ؟؟؟؟

فهل سأعود لأسمح لنفسي أن تهيم به أو تقترن بمصيره ؟؟؟ ...

عدتُ إلى سريري وفتحتُ جهازي المحمول الذي كان يضم أسراره المكفنة في رماد سخطي عليه وتحاملي على عاطفته التي تكرر وصفي لها بالتفاهة .....

والحقارة .....

والزيف ...

تعبتُ ليلتها وأنا أقرأ رسائله ...

تعبتُ وبكيتُ وكنتُ أراني مجرمة بحق نفسي وحق مشاعري التي لا تزال تعبق به وتتبع أثره ...

سنوات مضت على هذه الرسائل وأراني أحياها بغباء ...

سنوات مضت على هذه الرسائل وعدتُ اليوم لأنفض الغبار عنها بل وألمعها من جديد كي يبرق أمل الحياة فيها ....

صحوتُ على رنين هاتفي النقال وكانت رؤى تحدثني بلهفة أظهرت لي خلالها مدى خوفها عليّ ، لكنها استوقفتني حين سألتني بإلحاح عن الإجراءات التي اتخذها والدي في حق دكتور ياسر لكونه قد تعرض لمساءلة شخصية من قبل إدارة المستشفى أعقبها قرار تحميله مسؤولية ما حدث لي وإنذاره بإنهاء عقده لو تكرر منه مثل هذا الفعل ....

نعم لقد هدد والدي بتقديم شكوى ضده ..

هذا ما أجبتُ رؤى به ؟؟؟

وقد انتابني شعور الفخر والاعتداد وأنا أتحدث ..

بعدها أقفلتُ الخط وحاولتُ الاتصال بأبي لمعرفة ما حدث لكن جهازه حينها كان مغلقاً ...

وغاب عني سؤاله فيما بعد نتيجة انشغالي ببعض الاختبارات التطبيقية ...

مرت الأيام ثقيلة على خاطري وكنتُ أتجنب كل الأماكن التي أتوقع تواجده فيها ومرت عليّ لحظات كدتُ فيها أن ألتقيه لكن هذا لم يحدث ..

وقد علمتُ أنه لم يتزوج لمياء ولا غيرها وأنه باق في الأحساء رغم رحيل الأبوين إلى الدمام .....

انتهت فترة مكوثنا في المستشفى وأخذنا نعد العدة لأيام التخرج التي باتت وشيكة ...

في يوم أربعاء بارد وافقت أمي على خروجي برفقة رؤى إلى مقهى راق يكتظ بالعائلات الأحسائية التي تجده متنفساً من كبت تفرضه قوانين الحشمة ..

وقبل أن أدخل ...

رأيته ماثلاً أمامي عند بوابة المقهى يقبض يد امرأة كانت تسير إلى جانبه !!!!...

لا أعرف لم جنّ جنوني وثارت ثائرتي وحارت الكلمات على شفتيّ فكنتُ أجيبُ رؤى فقط بنعم أو لا .....

ولم أعرف حينها لون القهوة التي احتسيتها أو طعم الكعك الذي تناولته...

كانت تسألني بإلحاح عن سبب شرودي وكنتُ أجيبها باقتضاب :

ألم مفاجئ في رأسي ....

رأيتهما يركبان السيارة وكان مزعجاً بالنسبة لي إمساكها الحميمي بيده وقبوله الواضح بها ...

كنتُ أظنني نبضاً سيسكنه إلى الأبد رغم رفضي له ....

لم يعد بمقدوري أن أمنح قلبي لأحد ، لأن مشاعري المتبلدة ترغمني على النفور من أي إحساس دافئ يتسرب إلى عروقي أو يسعى لاستيطان قلبي ...

فلم أنا متجهمة الآن مما رأيته ؟؟؟

هو ليس لي ومحال أن يجمعني القدر به لذا عليّ ألا أبالي بما أراه !!!
حاولتْ رؤى إضحاكي ...
قلدتْ لي صوت أستاذة الكيمياء وطريقة تسلطها وكيف أنها تشبه شخصية الآنسة " مينشن " إحدى شخصيات مسلسل " سالي " الكرتوني ...
أشعلتْ لي شمعة هادئة وقرأت لي قصيدة شعر للشاعر قباني ..
فتحتْ هاتفها على عزف موسيقي كلاسيكي لمقطوعة فرنسية كنا نحبّ أن نسمعها معاً ...
ولما يئستْ من استقطابي أصلحتْ غطاء وجهها ثم استدعت السائق كي يسير بنا إلى البيت وهذا ما كنتُ أطمع به ....
تعودتُ كل خميس قراءة رسائل الوارد في بريدي الالكتروني وكنتُ أرد على معظم الصديقات في الوقت نفسه كما أسعى إلى حذف كل " الإيميلات " التي تردني دون معرفة هوية أصحابها وذلك قبل قراءتها خوفاً من احتوائها على برامج ضارة قد تتلف ملفاتي المهمة...
بقيت رسالة واحدة ترددتُ في حذفها وذلك لأن عنوانها كان جذاباً وغريباً وبعد أن التهمتُ قطعة كبيرة من شوكولاتة الجالكسي التي أعشقها دققتُ في المرسل فوجدتُها :
مرام ....
معقولة ... ترسل لي مرام ملفاً عنوانه ..

(وشم يسكن ذاكرتي)
عموماً لا بد لي من قراءة ما يحتويه .....

كان الملف عبارة عن مجموعة رسائل هي كالتالي :

(١)

إنه عيد ميلادك
كل عام ونبضك يسكنني ... ويدك تحررني ...وجفنك يغطّي آمالي ...
وصوتك صدى لجنوني ...
كل عام وأنا أكتبك نثراً وشعراً وحباً مقدساً ..
كل عام وابتسامتك عيد يأسر أعيادي ..
...

(٢)

اليوم اشتريتُ لك وردة بيضاء مثلك تماماً ثم طلبتُ من البائع أن يدثرها بورقة حمراء تنضح بشوق يسكنني بك ...
حملتُها مدة طويلة بين يدي ...
حاورتُها بالنظر وعزفتُ على أوراقها كل أوتار حنيني إليك ثم بعثرتها أمام باب بيتك غير مكترث بمن حولي حتى لو ترجموا ما فعلته على أنه ضرب من الجنون الذي لا جدال فيه ...
أنا الآن أبكي لأنك حبلى ...

حبلى بطفل لا طاقة لك بحمله ...
حبلى بوجع ...وألم ... ومعاناة جمعتك برجل لا تحبينه ...
فرضه عليك القدر وأنت بريئة منه ...

(٣)

أعرف أنك حورية بحر لا تعيش دون ماء وأعرف أنك جنية شفيفة تكره الضوء الصاخب وتعشق العتمة التي تحيكها خيوط الضوء

أعرف كل هذا وتقتلني كل اللحظات التي أقرأ فيها تاريخ أنوثتك الصاخب وأدرك فيـــها كم أنت (متـــــــمردة) و(عذبة) و(شــديدة الحضور)

تقودوني وساوسي إليك فأطرق باب غرفتك عدة مرات رغم علمي أنها فارغة منك

وأقترب من الباب ثم ألصق فمي بأخشابه وأقول ما لدي من كلام المعتوهين أمثالي

أقول كلامي وأنا على يقين أنك تسمعينني جيدا

وستقاطعينني في السطر ما قبل الأخير كعادتك وتقولين لي بهمسك الهادئ :

" ارحل من هنا "

حينها سأمارس بعض طقوسي الكهنوتية وأستلقي على أرض الممر في احتضار أخير وأتجاهل كل صرخاتك وضحكاتك ....

وسأذرف دموعا يتطلبها مني هذا المشهد الديناميكي الساخن

دموعاً ما اعتدتِ رؤيتها ولا سعدت قط بها

إنها دموع إحساسي بك ... دموع صداي الذي يمتد كل اللحظات إلى سمعك ...
دموع تاريخي المجنون بين يديك

احفظي رسائلي سيرتك الذاتية... أرجوك احفظي كل رسائلي وكل هتافاتي في سجل حياتك و

ثم ضمنيها أي لقاء يسألونك عني فيه وينبشون خلاله سطور حبي لك

ترجمي لهم إحساسي العجيب ... ارسمي لهم تصاويري ... دوزني لهم موسيقاي ... أشعلي لهم شموعي ثم قولي لهم
كم أنا أحبك

الأخيرة :

سامحيني لأنني تركتك تغرقين في وحل العتمة ...

سامحيني لأنني لم أستطع أن أدلك على بصيص الضوء الذي قد ينتشل ضياعك وينقذ انهيارك البطيء ...

سامحي كل أنفاسي التي ارتفعت وانخفضت بعيدة عنك ...

سامحي القلب والرئة والشرايين والأوردة لأنهم عجزوا رغم صلتهم بك عن الدفاع عنك ...

أعرف انك تموتين ..

وأعرف أن أول طعنة أوجعتك كانت بيدي .. ... سامحيني

شعرتُ بدوار خفيف في رأسي لكنني قاومتهُ بسهولة ... ولدي يقين جازم أن صاحب هذه الرسائل هو ... هو وليست مرام

وأن كل هذه الكتابات تنتمي إليه ...

قادني تفكيري إلى متاهات عديدة استنتجتُ خلالها أن يده امتدت إلى حمايتي في المستشفى من تسلط ذلك الدكتور الذي قام بطردي من المحاضرة ولعل زاهر كان من بين الذين ساهموا في إنقاذي وعودتي السريعة إلى اليقظة ...

كنتُ أشم يومها رائحة عطره تعبق بين جدران الغرفة وتدلني على كل خطوة خطاها فيها كي يطمئن على صحتي ...

لكنني وبختُ نفسي على هذا التفكير وتمرّدت على حنين قديم كان يشدني إليه ....

بدأ صباحي برنين هاتفي وكانت المتصلة مرام ...

تحدثتُ معها ببرود وكنتُ آمل ألا يطول الحديث وأن تنصرف عني كي أشغل نفسي بالأهم لكنها فاجأتني دون مقدمات :

أنه يطلبني للزواج وأنه ما زال مؤمن أنني له ؟؟؟

ما زال يحبني .. بل أنه اليوم عازم على مواجهة العالم كله كي يتزوج من أرملة حرمته تقاليد عائلته منها قبل هذا المصير !!!

إذن والفتاة التي كانت ترافقه في المقهى

(سألتها بتهكم)

عشيقة ؟؟

أم رفيقة ؟؟ ...

ردت بهدوء ينطقه المكر :

بل عشيقة ...

لم تنتظر أن تسمع تعقيبي لأنها تعرف جيداً أنني لن أنهار بسهولة أمام هذه المصيدة وسيكون كبريائي حينها أقوى من كل ما مضى فاستدركتْ تقول :

إنها خالتي خلود ... تكبرني بعامين .... تعرضت لصدمة نفسية جراء طلاقها من ابن عمها الذي خانها مع عاملتها المنزلية وتولى زاهر إزاحة

عبء ما لحقها جراء هذه الصدمة ...فظل يرافقها إلى المقاهي والمطاعم العامة ويتبادل معها الأحاديث ووجهات النظر التي تخص مشكلتها ...
لم أجبها بشيء سوى الرفض ...
فأقفلتْ الخط مخذولة ...
كان يظنني سأحدثه بولهٍ كما فعل هو في أول نبرة خاطبني بها ...
لا أنكر ذلك الارتباك الذي كان جلياً على شفتيّ ولا أنكر خفوت صوتي بعد أن دربته يوماً كاملاً على مواجهته ...
كنت خائفة ... متوترة ... عصبية ...
قلتُ له كلاماً قاسياً وكان يرد باقتضاب وطلبتُ منه عدة طلبات كان أولها :
أن يكف عن مطاردتي عبر رسائله التي وصفتُها بخيال المراهق الطائش ..
وأن يمتنع عن مساعدتي بأي شكل ...
وأن ينتزع فكرة قبولي به زوجاً بعد أن أصبحتُ شبه امرأة أعتم الزمن كل ما حولها من وجوه .....
كان رده بارداً كملامح وجهه حين يصطدم بكلام مؤلم لا يليق به كطبيب ومثقف ورجل متزن ...
لم يحاول إثارتي بأي لفظ بل انسحب بهدوء وأقفل سماعة الهاتف قائلاً : شكراً على كلّ ما قلته لي ..

ثم توارى عني فترة من الزمن ندمتُ خلالها بشدة على كل الألفاظ القاسية التي هاجمته بها ...

أخيراً فتحت جهازي المحمول يوم الخميس كعادتي فوجدته قد كتب :

لا تتصلي **تم التحدث بواسطة:** (ص ١٢:٣١)

لا يهمني أن تتصلي **تم التحدث بواسطة:** (ص ١٢:٣١)
الآن ولا يهمني أن
تحاصري وقتك من
أجلي ...

لا تتصلي

فقد تنفجر شظاياي **تم التحدث بواسطة:** (ص ١٢:٣١)
وتملؤك جنوناً
فقط أنظري إلي من
بعيد

لوحي بيدك **تم التحدث بواسطة:** (ص ١٢:٣٢)
تمتمي بشفتيك وسأقرأ

ما تقولين

بل سأرسم كلماتك على الهواء كأبجدية أولى أعرفها منذ طفولتي

تم التحدث بواسطة: (ص ١٢:٣٢)

والآن اجمعي ما تبعثر مني وخبئيه خلف خصلاتك الناعمة فوصيتي الأولى والأخيرة أن تكون هذه الخصلات هي مثواي الأخير.....

تم التحدث بواسطة: (ص ١٢:٣٥)

تم التحدث بواسطة: (ص ١٢:٤٤)

عدي الوردات عديها بعددها أرجوك

تم التحدث بواسطة: (ص ١٢:٤٤)

تحدثي مع من تشائين

قدمي الوعود ... **تم التحدث بواسطة:** (ص ٠١:٠٣)
تحايلي
وابتسمي واغضبي

ستأنسين في نهاية **تم التحدث بواسطة:** (ص ٠٢:٠٣)
المطاف بالوقوف على
باب خيمتي
حتى لو لم أناديك

وستقتلك الكلمة وتحييك **تم التحدث بواسطة:** (ص ٠٢:٠٣)
الكلمة

وحينها سأجرك إلى **تم التحدث بواسطة:** (ص ٠٣:٠٣)
هاوية أكبر شريان
يضخ الدم لجسمي
النحيل

انتبهي جيدا لخطواتك وأنت تسرعين الخطى بحثا عن المجهول الذي يناديك

لا تبوحي له بسرك
لا تخبريه بحقيقة دعواك
لا تفضحي جنونه بك

وخلوته بعطرك **تم التحدث بواسطة:** (ص ٠١:٠٣)

دعيهم يتخيلون العكس **تم التحدث بواسطة:** (ص ٠٢:٠٣)
ويظنون أن بيني وبينك
سترا غليظا ومساحة
تتسع للملايين من
الناس

في يوم ما

سأعلن هزيمتي أمام **تم التحدث بواسطة:** (ص ٠٢:٠٣)

عينيك ، عباءتك **تم التحدث بواسطة:** (ص ٠٢:٠٣)

وكل ما يحيطك من **تم التحدث بواسطة:** (ص ٠٣:٠٣)
سحر لم أكتشفه بعد
هل تعتقدين أنني

اكتشفتك ؟؟؟؟

محاااااااااااااااال

أنا لا أعرف عنك **تم التحدث بواسطة:** (ص ٠٣:٠٣)

شيء سوى أنني أحبك

ومهمتي البحث عنك **تم التحدث بواسطة:** (ص ٠٣:٠٥)

في كل الموجودات

وتسجيل هويتك على

: الآتي

كتبي **تم التحدث بواسطة:** (ص ٠٣:٠٥)

دفاتري أوراقي

صفحة يدي **تم التحدث بواسطة:** (ص ٠٣:٠٥)

أغلقتُ الصفحة ولم أتمالك نفسي من إشراق ابتسامة سكنت وجهي لدقائق . . . .

مرت أسابيع وأنا أنتظر رؤيته وألعن كل لحظات انتظاري الحمقاء ...
صادفتُه على صفحة الماسن بوميضه الأخضر فبادرته :
ما الذي تريده مني بعد كل هذه السنوات ..
لم يرد .....
أعدتُ السؤال
ولم يرد.....
فأعدته للمرة الثالثة قائلة :
كفّ عن تهميشي بعدم الرد !!
بعدها كتب :
باختصار ..... أعرف أنك ما زلتِ تحبينني ..
لأن بيني وبينك " ذرية من الكلمات "
فليس العقد بيننا مجرد كلمة " نعم " يصادق عليها مأذون الأنكحة
العقد بيننا مثياق إحساس آمنا به وقطعناه على رقابنا ...
قولي ما شئته عني ...
كاذب ،
منافق ،
واهم ،
عابث ...
أنا مسؤول عنك رغماً عنك ...

قطعتُ الاتصال ...

تنهدتُ بعد أن تسربت السعادة إلى مساماتي ...

نظرتُ إلى سقف الغرفة .....

إلى جدرانها ...

خطوط الضوء الخافتة التي كانت تسكنها ...

تمتمتُ في هدوء :

يبدو أن وجهاً (له هوية) أضاء من جديد بين كل الوجوه المعتمة في حياتي ..... لن أضيع الوقت أكثر ..... سأتزوجه .....

انتهت

تهاني الصبيحة